الأبحاث والدراسات 48

الهجرات العربية إلى ساحل شرقي أفريقيا في العصور الوسطى وآثارها الاجتماعية والثقافية والتجارية حتى القرن الرابع الهجري (*)

أ. د. غيثان بن علي بن جريس

(*) دراسة منشورة في كتاب: بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية، لغيثان بن جريس (الإسكندرية : دار السماح، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م) (الجزء الثاني) ، ص ص ٣٧ – ٨٣ .

المبحث الثالث

الهجرات العربية إلى ساحل شرقي أفريقية
في العصور الوسطى
وآثارها الإجتماعية والثقافية والتجارية حتى
القرن الرابع الهجري (*)

(*) هذه الدراسة نشرت في هيئة كتيببمركز بحوث كلية التربية بأبها وقد تم تصويرها وتجليدها في مطابع جامعة الملك سعود بالرياض (عام ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥م)ص ١ - ٥٢

الهجرات العربية إلى ساحل شرقي أفريقية في العصور الوسطى وآثارها الإجتماعية والثقافية والتجارية حتى القرن الرابع الهجري

تعتبر سواحل منطقة القرن الأفريقي بصفة خاصة ، وسواحل شرقي أفريقية بصفة عامة ، نقطة هامة للمواصلات ، ومنطقة لاستقبال الهجرات منذ أقدم العصور ، وهي الهجرات التي لعبت دوراً كبيراً في تشكيل تاريخ تلك المنطقة دينياً وثقافياً وإجتماعياً وسياسياً وإقتصادياً وحضارياً ، وغير ذلك من العوامل المرتبطة بالأصول التاريخية . وقد هاجر إليها المسلمون في العصور الوسطى وانتشروا فيها ، وأدى ذلك إلى قيام ممالك إسلامية ، بلغت درجة كبيرة من التقدم والرفاهية ، فضلاً عما أسدته لنشر الإسلام والحضارة الإسلامية ، كما تزعمت حركة جهاد إسلامي كبير ضد أباطرة الحبشة وبطارقتها وغيرهم من أعداء الإسلام المتربصين به الدوائر .

وتحتل سواحل شرقي أفريقية مساحة كبيرة ما بين رأس جوردافوي ورأس دلقادو Delegado في موزمبيق ، أي فيما بين ٩٠ شمالاً و ١٠ جنوباً ، من الصومال شمالاً مروراً بأفريقية الشرقية البريطانية (سابقاً) حتى « موزمبيق جنوباً » لكن مصطلح شرق أفريقية السياسي يشمل عدة دول داخلية منها « يوغنده ، بوروندي ، زامبيا ، أثيوبيا » ، وربما يشمل السودان أيضاً [(١)] .

أما أول نقطة على هذا الساحل شمالاً فهي منطقة رأس جوردافوي Gaurdafui عند مدخل باب المندب ، وتمتد جنوباً حتى

---

(١) انطوني سلري . « الجغرافية الإجتماعية لأفريقيا » ترجمة إبراهيم رزقانة، ومحمد جمال الدين رزقانة (اكسفورد ، ١٩٦١م) ص ٢٢١ ، حمدي السيد. الصومال قديماً وحديثاً (مقديشو، ١٩٦٥م) جـ ١ ، ص ٢٧ .

المنطقة التي عرفها المؤرخون والجغرافيون القدماء باسم بلاد بونت Paunt ، عرفت بهذا الاسم لدى اليونان والرومان وقدماء المصريين ، كما عرفت باسم « أوفير » عند الفينيقيين واليهود والبربر والعرب . أما تسمية هذا الرأس باسم « جوردفوي » فهو راجع إلى المكتشفين البرتغاليين في مطلع القرن السادس عشر الميلادي [(٢)] .

أما سواحل « قرن أفريقية » فإنها تشغل مساحة ما بين ١٠° - ١٣° شمالاً فيما بين رأس « جوردافوي » وباب المندب ، وهي سواحل جمهورية الصومال الديمقراطية وجمهورية جيبوتي الآن ، ولكن يتوسع مصطلح « قرن أفريقية » السياسي ليشمل جمهورية الصومال كلها ، وجمهورية جيبوتي ، وكينيا وأثيوبيا والسودان ... ويعني هذا تداخلاً جغرافياً وسياسياً بين شرق أفريقية وقرن أفريقية ، ويحد قرن أفريقية شرقاً خليج عدن ، وشمالاً سهول الدناكل والبحر الأحمر ، وجنوباً المحيط الهندي ، وغرباً وادي الصدع العظيم Great Rift Velley الذي يعتبر من أشهر المظاهر الطبيعية في العالم . ويبدأ هذا الصدع عند نهر الزمبيزي ، ويجري شمالاً ليضم في مجراه وادي نهر « شير » Shire وبحيرة نياسا ، وفي شمالها يتفرع إلى الصدع الشرقي والصدع الغربي ، فيجتاز الشرقي تنجانيقا وكينيا ، ويجرى خلال أثيوبيا ليعزل الصومال عنها حتى يصل إلى ساحل البحر الأحمر . ويتسع هذا الوادي الأخدودي في طرفه الشمالي ، حيث ينتهي إلى سهول فسيحة مثلثة الشكل ، تعرف باسم « سهول الدناكل » ، وهي محصورة بين الحافة الشرقية للهضبة الحبشية الوسطى والحافة الشمالية للهضبة الصومالية وساحل البحر

---

(٢) جودة حسنين جودة ، جغرافية أفريقية الإقليمية (الإسكندرية ، ١٩٨١م) ص ٢٥٦ ، أنطوني سلري ، الجغرافية الإجتماعية ، ص ٧.

الأحمر وخليج عدن ، ويرجع اتساع هذا السهل الساحلي في ذلك الجزء إلى الإنكماش الملحوظ في اتساع البحر وانحراف ساحله نحو الجنوب الشرقي ، في حين تحتفظ المرتفعات بإتجاهها الشمالي الجنوبي (٣) .

والخصائص الطبيعية لساحل شرقي أفريقية بسيطة ، رغم وجود بعض تفاصيل معقدة في الداخل ، والوحدات التضاريسية هي سهل ساحلي Coastal Plateau وهضبة : نكا The Niyka Plateau وهضبة الصومال التي تنحدر تدريجياً وبصفة عامة من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي . ولإنحدارها السريع نحو خليج عدن ، فلا تترك إلا سهلاً ضيقاً لا يزيد إتساعه على اثنى عشر ميلاً ، ويسمى هذا السهل الساحلي باسم «جوبان» Guban أي المحترق أو المحروق ، وذلك فيما بين إقليم العفر في جمهورية جيبوتي ورأس جوردافوي ، ويليه في الداخل سهل مرتفع وجبال أوجو Ogo وجوليس Golis حتى تنتهي إلى حافة المرتفعات حوالي ألفي متر. وتترك هضبة الصومال سهولاً ساحلية فسيحة في الوسط والجنوب (٤).

أما الأنهار في تلك المنطقة ، فليست كلها قليلة الأهمية ، فمعظم أنهار شرق أفريقية وقرن أفريقيا تجرى نحو الشرق لتصب في المحيط الهندي كأنهار تانا Tana ونانجاني Nangani وريفوجي Rufugi وريفوما Ruvuma وجوبا Juba وشبيلي Shabelle ويفشل الأخير هذا في الوصول إلى المحيط . بينما يتجه نهر مالاقاشي Malagasi غرباً إلى بحيرة

---

(٣) وللمزيد من التفصيلات أنظر ، جمال الدين الدناصوري ، جغرافية العالم، أفريقيا واستراليا ، (القاهرة ، ١٩٧٧م) جـ ٢ ، ص ١٦١ ، محمد عبد الغني سعودي ، أفريقيا (دراسة شخصية الأقاليم) (القاهرة ، ١٩٦٦م) ص ٢٧٠ ، جودة حسنين جودة . جغرافية أفريقية ، ص ٢٥٦ .

(٤) جمال الدين الدناصوري ، جغرافية العالم ، جـ ٢ ، ص ١٦٢ وما بعدها.

تنجانيقا ، كذلك يجرى نهر هواش Hawash في وادي الأخدود إلى الشمال من هضبة شوا الأثيوبية وينتهي في منخفض الرمال المالحة في ساحل الدناكل . ومن الأنهار الهامة جداً في بلاد شرق أفريقية بصفة عامة نهر الزمبيزي ونهر النيل ونهر الكونغو ، وهي أهم أنهار أفريقية عامة ، وأنهار شرقي أفريقية خاصة [٥] .

كان المدخل الشمالي للقرن الأفريقي حلقة من حلقات اتصال الأجناس البشرية بين أفريقية وجارتها ، ووفدت عبر بوغاز باب المندب عناصر آسيوية، وتوجد بقايا قديمة لأجناس بشرية في مناطق غير بعيدة عن ذلك المدخل ، ويعتبر البوشمين والأقزام أقدم العناصر البشرية في أفريقيا ، بل تعتبر أول العناصر الزنجية التي وفدت إلى شبه جزيرة الصومال ، ثم نزحت إلى الجنوب الغربي حتى هضبة أفريقيا الشرقية والجنوبية . وعرفت هذه العناصر الزنجية العريقة ببشرتها السوداء وشعرها المجعد وفكها البارز إلى حد كبير . وامتزجت هذه العناصر الزنجية بأخرى حامية قدمت من آسيا (وهي عناصر قوقازية) . ونشأ من هذا الإختلاط جيل جديد يحمل خصائص الجنسين يسميه علماء الأجناس باسم البانتو Bantu ، نزح أمام ضغوط هجرات حامية أخرى نحو جنوب القارة ، ومازالت تأثيرات حامية بادية على بانتو الشرق والجنوب (شرق وجنوب أفريقية) ، وهم من عناصر زراعية ورعوية أكبرها قبيلة كيكويو Kikyu في كينيا والباغندا Baganda في يوغنده . وتتمثل القبائل الرعوية بصفة خاصة في قبائل الزولو Zolo والماساي Masai في كينيا . وتعيش الجماعات الزراعية تحت تهديد القبائل الرعوية المحاربة[٦] .

---

(٥) H.R. Jarnet . Africa (London, 1971) PP. 328 ff , Edward ULLendorff. The Ethiopians (Introductions to Country and People). 2nd. ed. (Oxford, 1965) PP. 26 - 27 .

(٦) حمدي السيد ، الصومال ، جـ ١ ، ص ٢٧٤ .

وهناك تقارب كبير بين العناصر الحامية القوقازية التي وفدت إلى أفريقية من آسيا ، وبين الجنس السامي ، ورغم أن الحاميين احتفظوا بصفاتهم الجسمانية عبر العصور حتى الأزمنة الحديثة ، إلا أنهم اختلطوا وتأثروا بالساميين . وإن التمييز بين الحامي والسامي لغوي بحت ، فيتكلم الحاميون بلغات يراها علماء اللغات من أسرة لغوية واحدة أصلها من جنوب آسيا ، وفدت في عصر متقدم ، بحيث لم يعد لها الآن أثر في تلك القارة ، بينما يتكلم الساميون بلغات مشتقة من لغات جزيرة العرب في وقت متأخر نسبياً ، وإن كان هناك من يقرر من العلماء قرابة اللغتين بحيث أطلقوا عليها الأفرو - آسيوية . وليس هناك فروقات جسمانية بينهما (٧) .

ويقسم العلماء الحاميين إلى قسمين :

١ - الحاميون الشرقيون Eastern Hamites

٢ - الحاميون الشماليون Northern Hamites

ويشمل الشرقيون : الكوشيين ، والمصريين ، والبجة ، والنوبيين والصوماليين والدناقل ، والجالا ، والأثيوبيين .

وأهم تلك العناصر : الجالا الذين يعتبرون أشد القبائل القاطنة في شرق وقرن أفريقية ، ويشكلون نصف سكان أثيوبيا ، أما الدناقل أو الدناكل ، فإنهم يسكنون بامتداد ساحل البحر الأحمر من خليج البحر الأحمر من خليج زولا إلى خليج تاجورا ، وحتى المرتفعات الحبشية إلى الغرب من السهل المعروف باسمهم ، وجنوباً إلى نهو هواش ،وتظهر وحدتهم في الإسلام واللغة

---

(٧) انطوني سلري ، الجغرافية الإجتماعية ، ص ١٥-١٦ . محمد عبد الغني. أفريقيا ، ص ٥٤ - ٥٥ ، حمدي السيد ، «الصومال »، جـ ١ ، ص ٢٧٥ .

العفرية « الدناكلية » . التي تشبه اللغة الصومالية إلى حد كبير ، والحرفة الرئيسية لهؤلاء هي الرعي والتجارة والزراعة . وهم موزعون حالياً بين جمهوريات : جيبوتي وأثيوبيا وأرتيريا ، وكلهم مسلمون سنيون (٨) .

أما الصوماليون ، فيعتبرون الشعب المسيطر على قرن أفريقيا الشرقي حتى وقت قريب ، ويتميزون عن جيرانهم بوحدة عرقية وثقافية ولغوية ، وهم مسلمون شافعيون ، واختلطوا بالعرب منذ القدم ، ومن ثم لم تختلف قسماتهم وصورهم عن العرب إختلافاً يذكر ، ويحترفون الرعي والزراعة والتجارة والصيد البحري .

ولشرقي أفريقية أهمية إقتصادية عظيمة ، فهو يعتبر منتجاً كبيراً لنباتات السيزال والشاي والبن والقطن، والحاصلات الزراعية الضرورية لإحتياجاتهم كالفول السوداني والسمسم والكوبرا والتبغ والذرة والدخن والقمح والشعير . وهناك بعض النباتات المدارية كالموز في أثيوبيا والصومال . وعلى الرغم من أن القرنفل يزرع في أماكن متعددة من شرقي أفريقية فان معظم محصوله يأتي من جزيرة زنجبار وبمبا . أما الذهب فهو يستخرج أحياناً من مجاري الأنهار والسيول ، ولكنه لم يظهر بكمية تجارية في المنطقة ، رغم وجوده في أرتيريا وجنوب أثيوبيا (٩) .

(٨) راشد البراوي ، الحبشة بين الإقطاع والعصر الحديث (القاهرة ، ١٩٦١م) ص ٢٤-٢٥ ، حمدي الطاهر ، جيبوتي أمن البحر الأحمر (القاهرة ، ١٩٧٧م) ص ٣٧ ، مراد كامل ، الحبشة بين القديم والحديث . (القاهرة ، ١٩٥٩م) ص ٢١
ULLendroff The Ethiopians , PP. 40 - 41

(٩) محمد عوض محمد ، الشعوب والسلالات الأفريقية (القاهرة ، ١٩٦٥م) ص ٢٣٧ ، حمدي السيد ، الصومال ، جـ ١ ، ص ٣٠ ، فيليب رفله ، الجغرافية السياسية لأفريقيا (القاهرة ، ١٩٦٦م) ص ٣٤٧ - ٣٤٨ ، أنطوني سلري . الجغرافيا الإجتماعية ، ص ٢٢٦ ، جمال الدين الدناصوري. جغرافية العالم ، ص ١٧٩ ،
ULLendroff Ibid , PP. 30-31

هذا ، ولا تشير المصادر والمراجع إلى أن السكان الأوائل لساحل قرن أفريقية ، قد عرفوا نوعاً من الكتابة الخاصة بهم ، أو إستعانوا بكتابة غيرهم لتسجيل أحوالهم وتطوراتهم ، ولكنهم من جهة أخرى استطاعوا أن يقيموا علاقات كانت في أغلبها علاقات تجارية مع مناطق الحضارات الكبرى في العالم القديم . وكان البحارة والربابنة القادمون من العالم القديم يجوبون بسفنهم التجارية الساحل الصومالي . ونتج عن هذا التعامل التجاري أو زاد عدد المهتمين بالكتابة عن الساحل الصومالي ، حيث سجلوا مشاهداتهم وقام الفنانون منهم بتخليد ذكرياتهم عن تلك الزيارات في الرسوم الأثرية للعالم القديم . ومن ثم فإن أنجح وسيلة لمعرفة التاريخ العام لسكان هذه السواحل في العصور القديمة هو الإعتماد على تلك العلاقات الصومالية بمواطن الحضارات القديمة في أفريقية وآسيا (١٠) .

وفي العصر الإسلامي « العصور الوسطى » ، كانت بلاد البربر ، وقرن أفريقيا ، وساحل الزنج في شرقي أفريقية من أهم المناطق الأفريقية التي إمتد إليها المد الإسلامي سلمياً ، وكانت حينئذ منطقة مشهورة لدى العرب بمحاصيلها التي كانت تمثل العمود الفقري لحياتهم التجارية ، ونجد وصف المنطقة في كتب الرحالة المسلمين الأوائل كالمسعودي الذي يصف المنطقة وسواحلها ومنتجاتها التجارية . وذكر البحر الهندي « الحبشي » حيث يقول: «وليس في المعمورة أعظم من هذا البحر ، وله خليج متصل بأرض الحبشة

---

(١٠) إبراهيم أحمد رزقانة ومحمد صفي الدين ، الجغرافية الطبيعية (القاهرة ، ١٩٦٣م) ص ٥٠٢ - ٥٠٣، على أحمد نور ، سلسلة بونت (١) مقديشو (مكان النشر والتاريخ بدون) ، ص ٤٤ ، صلاح صبري ، أفريقيا وراء الصحراء (القاهرة ، ١٩٦٠م) ص ٢٩١ - ٢٩٢ ، حمدي السيد ، الصومال ، حـ ١ ، ص ٢٩٦ .

يمتد من ناحية بربري من بلاد الزنج والحبشة ، ويسمى الخليج البربري (يقصد خليج عدن المطل على مدينة بربرة) طوله خمسمائة ميل وعرضه مائة ميل ، وليست هذه بربرى التي ينتسب إليها البرابرة الذين في بلاد المغرب من أرض أفريقيا » . كما أشار المسعودي إلى السفن التي كانت تجوب هذه البلاد ، وتلك المحيطات ، والربابنة الذين لهم الشهرة والمعرفة للمنطقة هم «العمانيون» وبقية أبناء الجنوب العربي . وأهل المراكب من العمانيين يقطعون هذا الخليج المعروف بالبربرى (١١) .

لقد تردد المسلمون على سواحل شرقي وقرن أفريقية من أجل جلب مواد متوفرة فيه ، هذا إلى جانب رغبتهم الأكيدة لنشر الإسلام بين السكان ، وكان العرب المسلمون يقومون بدور الوسيط . لتجارة العالم الإسلامي وأوروبا ، ونقلوا من الشرق سلعاً أهمها الكافور والبخور والقرنفل والحرير والعود والصندل فضلاً عن جواهر (سيلان) ومسك (الملبار) والدر واللؤلؤ وأنواع الياقوت (١٢) . وكانت من ضمن السلع المتوفرة في قرن أفريقيا شجر الأبنوس والصندل والعاج والساج والقنا . ومن هذه السواحل يلتقط العنبر ،

---

(١١) وللمزيد من التوضيحات ، أنظر . أبو الحسن على المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، (القاهرة ، ١٩٥٨م) ، ص ١٠٧ .

(١٢) محمد بن حبيب ، كتاب المنمق في أخبار قريش ، تحقيق خورشيد أحمد فاروق (بيروت ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٥م) ص ٣٢، ٤٠٠-٤٠٢، أبو عثمان الجاحظ ، التبصر بالتجارة ، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب (بيروت، ١٩٦٦م) ص ٣٤ ، شمس الدين المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، تحقيق دي غوي (ليدن ، ١٨٧٧م) ص ٧٩ ، ٩٧ .
M.J. Kister. Some Reports Concerning Mecca from Jahiliyya to Islam " Studies in Jahiliyya and Early Islam (London, 1980) PP. 61 - 62, Particia Crone. Meccan Trade and the Rise of Islam (Oxford, 1987).

ولا يوجد في سواحل أخرى غيرها [١٣] .

كما كان العاج من أهم المواد التي كانت لها جاذبية خاصة ، والمتوفرة في منطقة قرن أفريقية ، ومن تلك الأرض يجهز أنياب الفيلة ، ويجهز الأكثر منها من بلاد عمان إلى أرض الصين ، ولولا ذلك لكان العاج بأرض الإسلام كثيراً[١٤] .

وهكذا كان البحر الأحمر - ومازال - عامل وصل بين قارتي آسيا وأفريقية ، وعبره تنقل الأفكار والأديان والتجارة ، فضلاً عن أنه كان أهم معبر للسلالات البشرية من آسيا إلى أفريقية منذ عصور سحيقة . ونظراً لوقوع منطقة القرن الأفريقي والسواحل الشرقية في ملتقى القارتين الأفريقية والآسيوية ، فإن سكانه احتكوا بالحضارات القديمة : كالحضارة المصرية ، والعربية والهندية ، والفارسية ، والأغريقية وغيرها ، وترعرعت في ربوع بلادهم حضارة أعجب بها الرحالة والمكتشفون وأشاد بها الكتاب والمؤرخون.

---

(١٣) المسعودي ، مروج الذهب ، جـ ١ ، ص ١٤٨ ، أحمد بن واضح اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي (بيروت ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م) جـ ٢ ، ص ١٩١ ، أبو عبد الله البكري ، معجم ما استعجم من الأسماء والبلاد والمواضيع. تحقيق مصطفى السقا (بيروت ، ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م) ، جـ١ ، ص ٣٥٥ - ٣٥٦ ، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي ، معجم البلدان، (بيروت ، ١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م) جـ ٣ ، ص ٣٤٣.

Abdullah Alwi Haji Hassan , " The Arabian Commercial Background in Pre-Islamic time " Islamic Culture , Vol.LXI No.2 (1987)PP.78-79.

(١٤) المسعودي ، مروج الذهب ، جـ ٢ ، ص ٧ .

العلاقات التاريخية بين السواحل العربية والأفريقية منذ القدم:

كان البحر الأحمر منذ أقدم العصور طريقاً للملاحة ، ووسيلة للتبادل التجاري بين الدول المحيطة به ، وبين دول الشرقين الأدنى والأقصى . وكلما تقدمت فنون الملاحة وبناء السفن ، ازدادت أهمية وقيمة السلع المتبادلة بين هذه الشعوب كماً وكيفاً . وكان لموقع البلاد العربية الجغرافي كبير الأثر في توجههم نحو الملاحة ، وتطورها ، وبالذات أهل جنوب الجزيرة العربية الذين يحدهم البحر الأحمر غرباً ،وخليج عدن والمحيط الهندي جنوباً ، والخليج العربي شرقاً .وتكون بلاد الحضارات القديمة قريبة منهم ، بينما تقابل سواحلهم سواحل القرن الأفريقي . وكانت هذه العوامل الطبيعية منها والبشرية حافزاً قوياً شجع العرب على التوجه صوب البحر ، وأن يصبحوا أول من احتل سواحل القرن الأفريقي ، وقد امتطى عرب الجنوب صهوة البحر في وقت مبكر من التاريخ ، وأصبحوا بحارة مهرة ، وتجاراً حاذقين ، وكانت موانيء الجنوب العربي مراكز تجارية مزدهرة . وبرزت دويلات عربية صغيرة الحجم ، ولكنها ثرية وقوية . ومن جهة ثانية فهم أول شعب أتقن طرق التعامل مع الرياح الموسمية ، واكتشفوا أنهم يستطيعون إقامة صرح تجارة قوية مع سواحل قرن أفريقية ، فنشطوا منذ دولة معين حوالي (١٣٠٠-٦٥٠ق.م) وسبأ حوالي (٩٥٠-١١٥ق.م) ، ثم دولة حمير (١١٥ق.م - ٥٢٥م) وقامت هذه الدول بنشاط تجاري كبير ، وساهمت بازدهار الحركة التجارية البحرية منها والبرية ، حتى تمكنت سبأ من السيطرة على تجارة المحيط الهندي وسواحل قرن وشرق أفريقية [(١٥)] .

---

(١٥) جورج فاضلو حوراني ، العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى ، ترجمة ، السيد يعقوب بكر (القاهرة ١٩٥٨م) ص ٥٣.

G.S.P. Freeman , & Grenville . The East African Coast (Select, Documents from the first to the earlier Nineteenth Century) Clarendon Press, 1962 PP. 33 - 34 .

ومنذئذ ارتبط تاريخ شرق وقرن أفريقية بالعرب ارتباطاً وثيقاً ومتواصلاً . وظلت للعرب خلال هذه الفترة الزمنية الطويلة صلة وثيقة وأواصر متينة بالساحل الشرقي لأفريقية ، بصورةعامة ، والساحل الصومالي بصفة خاصة ، وربما أقاموا في تلك الفترة المبكرة بعض مستوطنات عربية في المناطق الساحلية ، سيما وأن للعرب جالية كبيرة في سواحل الهند قرب نهر الهندوس سماهم الهنود باسم « عربيته » أي العرب . ولما أرسل الإسكندر المقدوني قائد أسطوله « نيارك » لإكتشاف بحر الهند ، وجد بسواحل بلاد الهند آثاراً تدل على نفوذ العرب ، واحتكارهم للتجارة ، وأساطيل عربية . وكان الربان الذي أرشده في ذلك البحر عربياً ، وكان العرب أول من قام باستكشاف في البلاد الواقعة جنوبي بوغاز باب المندب حتى سفالة في أقصى ساحل شرقي أفريقيا جنوباً (موزمبيق حالياً) ، وبعدهم وصلت باقي الأمم وبواسطتهم ، فضلاً عن أن نزول هذه الأمم إلى تلك الأراضي كان مؤقتاً ، بينما تواصل وجود العرب بها (١٦) .

لقدل تعددت الروابط الأفريقية إلى روابط ثقافية وعرقية ، بعد أن تعددت الهجرات العربية عبر باب المندب وزيلع وبربره ، ومنذ (بلقيس) ملكة سبأ في القرن العاشر قبل الميلاد أو قبلها بكثير ، كما ساهم موقع قرن أفريقية ، ونمط حياة سكانه في تكوين علاقات تجارية مع بلدان أفريقية وآسيا ، مما جعل التجارة حرفتهم الرئيسية ، فقام ذلك العدد الهائل من الموانىء والمدن التجارية على طول ساحل المنطقة . فهاجر إليها العرب وذلك للتقارب

---

(١٦) المسيو جيان : وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن أفريقيا الشرقية. نقله إلى العربية ملخصاً يوسف كمال (القاهرة ، ١٩٢٧م) ص ٢٥، ٢٦، ٤٤٩-٤٥٠) أحمد فخري . اليمن ماضيها وحاضرها (القاهرة ، ١٩٥٧م) ص ٥٢ .

المناخي بين المنطقتين [17].

وفي الفترة التي تلت نفوذ حمير حتى ظهور الإسلام ، أسس العرب نقاطاً تجارية مهمة على الشاطئ الأفريقي الشرقي ، خاصة في المنطقة التي تلي خليج عدن ، ويعني هذا أن الهجرات العربية المتدفقة على المنطقة ، واستقرار بعضهم في المراكز التجارية المحلية لإعداد السلع التجارية ريثما يتم شحنها إلى بلادهم ، قد تحولت إلى استقرار دائم ، بل وتأسيس هيئات خاضعة لقوانين إدارية ثابتة . ونتيجة لهذا النفوذ العربي والسياسي والإقتصادي على قرن أفريقية تدفق الآلاف من سكان عبر الجزيرة العربية إليها للإستيطان بها ، مما أعطى سكان الساحل الأفريقي قوة ونشاطاً كبيرين لتحسين وتنويع منتجاتهم ، للحصول على أكبر كمية ممكنة من انتاج من تحضر من الأمم الشرقية ، كما قاموا بتسويق منتجاتهم في سفنهم التي حملتها إلى البلاد العربية ، حتى امتدت إلى الهند والصين ومصر [18].

ويوافق هذا ما ذكره صاحب رحلة الطواف بأن البربر كانوا أحياناً ينقلون

---

(17) راشد البراوي ، الصومال الكبير حقيقة وهدف (القاهرة، ١٩٦٦م) ص ١٤-١٥، حمدي السيد . الصومال ، جـ ١ ، ص ٣٣٥ .

(18) شهاب الدين أحمد بن عبد القادر عرب فقيه . تحفة الزمان (أو) فتوح الحبشة ، مخطوط نشره مع مقدمة بالفرنسية ، رينيه باسيه ، وحققه فهيم محمد شلتوت (القاهرة ، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م) ص ٩١ وما بعدها ، أحمد فخري . اليمن ماضيها وحاضرها ، ص ٥٣-٥٤، المسيو جيان ، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن أفريقيا الشرقية . ص ٤٤، ٤٤٦، جرجي زيدان . العرب قبل الإسلام (القاهرة ، د.ت) ص ١٧٨ .

سلعهم إلى البلاد الواقعة على مدخل البحر الأحمر (١٩) .

وتمثل دولة حمير (١٥٥ق.م - ٥٢٥م) وريثة ملك سبأ ، وموحدة القبائل العربية ، العصر الذهبي في العلاقة بالبحر الأحمر عامة ، وشواطئ قرن أفريقية خاصة ، وهي نفس الفترة التي ازدهرت فيها العلاقة التجارية بصورة أكثر وضوحاً بين سكان قرن أفريقيا وبين دول اليمن . وفي القرنين الثاني والثالث الميلاديين ، كانت الإمبراطورية الرومانية العظيمة تسير تدريجياً إلي الإضمحلال ، وفي القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، تجتاح الإمبراطورية المتداعية ، تلك القبائل المتبربرة القادمة من الشمال . ودخلت أوروبا إلى ما عرف بعهود الفوضى والظلام ، ونتج عن هذا الوضع أن توقفت علاقة الساحل الأفريقي بهذه الإمبراطورية تماماً (٢٠) .

وفي مطلع القرن الثاني الميلادي ، وحوالي عام ١٢٠ م ، انهار سد مأرب، وانهار معه اقتصاد بلاد العرب الجنوبية ، فتفرق سكانها على أيادي سبأ ، فسلك كل فريق منهم طريقاً ، فاتجه معظمهم إلى منطقة القرن الأفريقي حيث الأرض الفسيحة ، الصالحة للسكنى ، والتي رحبت بمقدمهم منذ أول وهلة ، فجدد المهاجرون الجدد حضارة وحياة السكان الأفارقة ، وطوروها مستنبطين

---

(١٩) على أحمد نور . سلسلة بونت ، ص ٦٩ - ٧٠

M.J.Kister. " Some Reports...." PP. 132, 201, A. Alwi Haji Hassan " The Arabian Commercial ..." Vol. LXI No. 2 PP. 81 ff.

وصاحب رحلة الطواف له كتاب باللغة الإنجليزية تحت عنوان :

" The Periplus of the Erythreaes Sea "

(كتاب الطواف حول البحر الأريتري) ويقصد بالبحر الأريتري البحر الأحمر أو المحيط الهندي . وصاحب هذا الكتاب تاجر أغريقي مجهول الإسم ، عاش في الإسكندرية في القرن الأول الميلادي .

(٢٠) على أحمد نور ،المرجع نفسه ، ص ٧٣.

من حضارتهم اليمنية ، وخبرتهم المكتسبة ، ونظامهم الزراعي السبئي ، فنشروا المحراث في ربوع البلاد التي خلط سكانها النشاط الزراعي بالرعوي سابقاً .

وخلال فترات الحروب الدينية والمذهبية في بلاد العرب حتى ظهور الإسلام وانتشاره في بلاد العرب ، تزايدت حركة الهجرة والاستيطان العربي على سواحل قرن أفريقية ، وامتدت من الموانىء الشمالية حتى الموانيء الشرقية، فظهرت جاليات عربية كبيرة في تعدادها في مراكز زيلع وبربرة وجوردافوي وغيرها من مراكز تجارية لأسباب دينية أو شخصية أو تجارية . وبهذه الإستقرارات ، بدأ عهد جديد في تأفرق العرب ، وإنصهارهم خاصة الصوماليين منهم (٢١) .

وكان لهذه الجاليات العربية أكبر الأثر ، في حركة نشر الإسلام في بلاد الصومال وارتيريا والدناكل والحبشة ، منذ ظهوره ، بل ومنذ الهجرة الأولى إلى الحبشة ، حتى انتشر الإسلام انتشاراً منقطع النظير في منطقة القرن الأفريقي وفي داخله ، وبطريقة سلمية ، وهذا يمثل أرقى وأنقى تلك الصلات وأبقاها أثراً .

---

(٢١) وللمزيد من التفصيلات ، انظر . حسن ابراهيم حسن . إنتشار الإسلام في القارة الأفريقية (القاهرة ، ١٩٦٣م) ص ٢٦-٢٧ . المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، معهد البحوث والدراسات . المسح الشامل لجمهورية الصومال الديمقراطية (بغداد ، ١٩٨٢م) ص ٦١، غيثان بن علي بن جريس . « تطور العلاقات السياسية والتجارية بين الحبشة وبلاد النوبة والحجاز في صدر الإسلام » . مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (العدد الثامن ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م) ص ٤٢٠ وما بعدها .

منذ فجر الإسلام تمت هجرات عربية إلى بلاد الحبشة والصومال لأسباب دينية وسياسية ، فضلاً عن العامل الإقتصادي الذي كان بارزاً في جميع الهجرات .

ظهر الإسلام في مكة المكرمة ، ودعا النبي ﷺ الناس إلى الدين الجديد ، بطريقة سرية لمدة ثلاث سنوات ، ثم جهر بالدعوة بأمر من الله « وأنذر عشيرتك الأقربين » فآمن به بعض ، وانصرف آخرون إلى إيذائه ، ومن اتبعه من المسلمين . وأشار النبي ﷺ إلى أصحابه أن يتفرقوا في الأرض ، فلما سألوه عن الجهة نصحهم بالجوء إلى الحبشة قائلاً لهم إن خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد وهي ارض صدق ، حتى يجعل الله لكم مخرجاً مما أنتم فيه . ومن المرجح أن اختيار بلاد الحبشة كملجأ للمسلمين الأوائل الذين عذبوا على يد كفار قريش لدليل قاطع على العلاقات السائدة بين عرب الحجاز وبلاد الحبشة عند ظهور الإسلام [٢٢] .

وفي السنة الخامسة للبعثة النبوية (٦١٥م) تمت أول هجرة في الإسلام إلى الحبشة ، وكانوا أحد عشر رجلاً وأربع نسوة ، وكان فيهم عثمان بن عفان

---

(٢٢) عبد الملك بن هشام ، السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين (مكان النشر والتاريخ بدون) ، جـ ١ ص ٣٢١-٣٢٢، اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٧ - ٢٨ ، محمد بن عبد الباقي .الطراز المنقوش في محاسن الجيوش . مخطوط رقم ٢٥٣، جامعة الملك عبد العزيز ، جده ، ورقة ١٥-١٦، على بن الشيخ إبراهيم الحلبي الشافعي ، أعلام الطراز المنقوش في محاسن الجيوش ، مخطوط ، تاريخ رقم ١٤١٢ ، ٥١٥٨١، جامعة الأزهر . ورقة ٥ ، جلال الدين السيوطي . أزهار العروش في أخبار الحبوش ، مخطوط مصور عن نسخة بالاسكوريال ، ميكروفيلم ، رقم (٣٧) تاريخ (دار الكتب بالقاهرة) غيثان بن علي بن جريس . بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية (الإسكندرية ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م) جـ ١ ، ص ١١-٣٧، ٢٥٩-٢٨٣ .

وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ وتتابعت بعدئذ الهجرات ، وكان جعفر بن أبي طالب هو المقدم عليهم ، والمترجم عند النجاشي [٢٣] .

وبجانب هجرة المكيين فإن ثمة هجرة يمنية إلى الحبشة ، وكان اليمنيون بضعة وخمسين رجلاً في سفينة ، متجهين إلى مكة المكرمة ، وسبب رحلتهم البحرية من اليمن إلى مكة ، خوفهم من أن يقعوا في أيدي قبائل عربية حليفة لقريش ، إذا ما هاجروا بطريق البر فألقتهم سفينتهم بأرض الحبشة ، فوافقوا جعفر بن أبي طالب وبقية الصحابة عند النجاشي ، فأقاموا عنده حتى قدموا على النبي ﷺ في المدينة المنورة ، وشهد أبو موسى الأشعري - قائد المهاجرين اليمنيين - الواقعة بين النجاشي وجعفر بن أبي طالب وسفارة قريش [٢٤] .

وعلى الرغم من أن الحبشة قد استولت على اليمن ، وحاول ملكها «إبرهه» أن يهدم الكعبة ، فإنها بعد أقل من نصف قرن من الزمان استضاف ملكها «أرماح» أو «أصحمه» ، المهاجرين الأوائل ،وتوثقت بعدئذ الصلات ، وقويت عرى الصداقة بينه وبين النبي ﷺ، وتبادلا الرسائل . وكان آخرها تلك التي بعثها النبي صلوات الله عليه وسلامه في السنة السادسة من الهجرة إلى

---

(٢٣) ابن هشام ، السيرة ، جـ ١ ، ص ٣٢٨، ٣٣٥ وما بعدها ، محمد بن جعفر بن جرير الطبري . تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت ، د.ت) جـ ٢ ، ص ٣٢٨ وما بعدها ، عبد الشافي غنيم عبد القادر ، « البحر الأحمر طريقاً للدعوة الإسلامية » البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة ، أبحاث الأسبوع العلمي ١٠-١٥ مارس ١٩٧٩م (القاهرة ، ١٩٨٠م) ص ٧٨ . الأمين عبد الكريم . « الصراع بين القوى الإسلامية والمسيحية في أثيوبيا إلى نهاية القرن التاسع عشر » مجلة دراسات أفريقية ، المركز الإسلامي الأفريقي العدد الأول (رجب ١٤٠٥ هـ / ابريل ١٩٨٥م) ص ٤٦ .

(٢٤) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٢ ، ص ٢٣٠ وما بعدها ، عماد الدين محمد إبن كثير ، البداية والنهاية (بيروت ، ١٩٧٨م) جـ ٣ ، ص ٦٦، ٧١ .

النجاشي يطلب منه عودة المهاجرين ، بعد أن استقرت الأحوال في شبه الجزيرة العربية . وكون المسلمون دولة إسلامية قوية في المدينة المنورة . وخرج الصحابة من أرض الحبشة بعد أن مكثوا فيها حوالي ستة عشر عاماً ، نشروا فيها العقيدة الإسلامية ، وذكروا للنبي فضل النجاشي عليهم ، وحسن ضيافته لهم ، وما طلبه منهم من أن يستغفر له النبي ﷺ ، فقال صلوات الله وسلام عليه : « اللهم أغفر للنجاشي » ، فقال المسلمون « آمين » (٢٥) . وثبت في الصحيحين أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه ، وقال : « مات اليوم رجل صالح فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة» . كما ثبت أنه استغفر له عند سماعه نبأ وفاته (٢٦) .

ويقال أن أربعين حبشياً قدموا من النجاشي « أصحمه » على النبي ﷺ وشهدوا معه غزوة أحد ، وعرضوا عليه أن يذهب معهم إلى الحبشة لأنها ارض مسرة ورخاء أكثرمن شبه الجزيرة العربية ، وهم الذين نزلت عليهم الآية الكريمة « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون » (٢٧) .

---

(٢٥) ابن هشام ، السيرة ، جـ ١ ، ص ٣٤١، ابن سيد الناس . عيون الأثر في فنون المغازي وشمائل السير . تحقيق دار إحياء التراث العربي (بيروت ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢م) جـ ١ ، ص ١٤٩، ابن حجر العسقلاني . فتح الباري . تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب (مكان النشر والتاريخ بدون) ، جـ ٧ ص ١٨٨، ١٩١، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ٣ ، ص ٨٣، ٨٤ .

(٢٦) ابن هشام ، السيرة ، جـ ١ ، ص ٣٤١، ابن حجر العسقلاني ، فتح الباري ، جـ ٧ ، ص ١٨٨، ١٩١، ١٩٢.

(٢٧) سورة القصص ، الآية (٥٢) ، اسماعيل بن كثير . تفسير القرآن الكريم (بيروت : دار المعرفة ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م) جـ ٣ ، ص ٤٠٤-٤٠٥ جلال الدين السيوطي ، رفع شأن الحبشان ، مخطوط رقم (٢٣٤٢) مكتبة جامعة الأزهر ، ورقة ١٤ ، أنظر أيضاً محمد حميد الله . مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة (بيروت ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م) ص ١٠٦ - ١٠٧ .

أما في الصومال فمن المرجح أنها قد عرفت الإسلام في حياة الرسول ص حينما خرج جعفر بن أبي طالب من مكة إلى الحبشة لنشر الدعوة الإسلامية ، وفي طريقه أسس مراكز للدعوة في ارتيريا والصومال بمساعدة الجاليات العربية المستوطنة ، وكان ذلك قبل هجرة الرسول من مكة إلى المدينة بنحو ثماني سنوات . ومن هنا فلا غرابة إذا وجدنا أن الصوماليين قد صاروا فيما بعد من أكبر المتحمسين لنشر الإسلام ، وصارت البلاد إسلامية خالصة(٢٨).

ومع ازدهار الإسلام ديناً ودولة ونظاماً ، ازداد النشاط البحري ، وتوافدت على سواحل القرن الأفريقي مجموعات ضخمة من دعاة الإسلام من عرب وعجم ، لإنشاء مراكز ثابتة لنشر الدعوة ، وبث تعاليم دين الإسلام بين أهالي تلك البلاد (٢٩) .

ولم تدخل منطقة الحبشة - بما فيها الصومال والسودان وارتيريا - ضمن مناطق الفتوحات الإسلامية الأولى لأسباب متعددة ، لعل أبرزها ، ما كان للنجاشي « أصحمة » من مقام رفيع في نفوس المسلمين ، وما روى

(٢٨) أحمد حفني القنائي ، الجواهر الحسان في تاريخ الحبشان (القاهرة ، ١٣٢١هـ) ص ج . محمد محمد أمين . تطور العلاقات العربية الأفريقية في العصور الوسطى (القاهرة ، ١٩٧٧م) ص ٣٣ ، إبراهيم علي طرخان . الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة في العصور الوسطى . المجلةالتاريخية المصرية (القاهرة ١٩٥٩م) المجلد الثامن ، ص ٥-٦، غيثان بن علي بن جريس « تطور العلاقات السياسية والتجارية بين الحبشة والنوبة وبين الحجاز » ص ١٢-١٥ .

(٢٩) وللمزيد من التفصيلات انظر السر أحمد العراقي . « الإسلام ومراكز الثقافة الإسلامية في أثيوبيا والصومال » ندوة العلماء الأفارقة ومساهمتهم في الحضارة العربية الإسلامية . الخرطوم ٢٨/ ٣٠ يوليو / تموز ١٩٨٣م (بغداد ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م) ص ١٦٤ وما بعدها ، عبد الشافي « البحر الأحمر ....» ص ٨٠-٨٥، غيثان بن علي بن جريس . « العرب في مقديشو وأثرهم في الحياتين السياسية والثقافية في ظل الإسلام » مجلة المؤرخ العربي (اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة ، ١٩٩٣م) العدد الأول ، المجلد الأول ، ص ١٢٨ وما بعدها .

عن النبي ﷺ « اتركوا الحبشة ما تركوكم » .

ومن جهة ثانية فقد ركز الخلفاء الأولون جهودهم لكسر شوكة الإمبراطوريتين : الرومانية والفارسية فاتصف الإتجاه الإسلامي في الحبشة عامة بطابع سلمي بحت [٣٠] . وليس هذا الإتجاه - كما فسره البعض - نتيجة لضعف عرب شمال الجزيرة العربية في شئون الملاحة ،وركوب البحار ، وإلا اتجهوا بادىء ذي بدء نحو السودان والصومال [٣١] . فنحن لا نميل إلى هذا الرأي ، حيث كان للمسلمين قوة بحرية دافعت بل هاجمت القوة البحرية الرومانية ، لا سيما وقد انضمت إلى حظيرة الإسلام شعوب بحرية متمرسة في ركوب البحر كاليمن ومصر وسوريا .

وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وجهت حملة بحرية لتأديب قراصنة الحبشة الذين هاجموا متاجر المسلمين في البحر الأحمر ، ومن الواضح أن حملة الخليفة عمر بن الخطاب في سنة ٢٠ هـ (٦٤١م) لم تكن تهدف غير

---

(٣٠) الشاطر بوصيلي عبد الجليل . معالم تاريخ السودان ووادي النيل (القاهرة ، ١٩٥٧م) ص٨، فتحي غيث - الإسلام والحبشة عبر التاريخ.(القاهرة ، د.ت) ص ٥٩ .

(٣١) جورج فاضلو حوراني ، العرب والملاحة ، ص ١٠٧ ، فتحي غيث ، الإسلام والحبشة ، ص ٥٩ ، الأمين عبد الكريم . (الصراع بين القوى الإسلامية والمسيحية في أثيوبيا) ، ص ٤٧-٤٨.

تأمين البحر الأحمر من خطر قراصنة الأحباش ، حيث إنها لم تسيطر على أية بقعة أفريقية [٣٢] .

وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب كذلك ، يسجل المؤرخون أول من هاجر إلى قرن أفريقية من المسلمين العرب ، وهو « ود بن هشام المخزومي » وجماعة من أسرته ، واستقروا في مكان ما بالساحل . ويذكرنا سبق المخزوميين إلى الهجرة نحو قرن أفريقية ، أمر سفارتي قريش إلى الحبشة أثناء هجرة المسلمين الأوائل حيث كان مع عمرو بن العاص مخزوميان ، مما يوحي أن لهذه الأسرة نفوذاً كبيراً ومعرفة وإلماماً أكثر من القبائل الأخرى ، ولم يكشف التاريخ نوع هذا النفوذ . ويرجع المؤرخون سبب هذه الهجرة إلى إختلاف وجهات النظر بين الخيفة عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد المخزومي، وعزله عن قيادة الجيش الإسلامي في الشام حيث قال خالد يومئذ « رحم الله أبا بكر ! لو كان حياً ما عزلني [٣٣] » . ولكننا نرى أن عمر بن

(٣٢) محمد بن إسحاق الفاكهي ، كتاب المنتقى في أخبار أم القرى . نشرة وستنفلد (ليبزج ، ١٨٥٩م) ص ٤٤ ، يوسف فضل حسن . دراسات في تاريخ السودان (جامعة الخرطوم ، ١٩٧٥م) جـ ١ ، ص ٣-٦ .

J. Spencer Trimingham . Islam in Ethiopia , 3rd. ed (London, 1976) PP. 46-47.

ومن يتتبع العلاقات بين الحبشة وشبه الجزيرة العربية ، وخاصة بلاد الحجاز، يجد أن الغارات من قبل قراصنة الأحباش تكررت خلال حكم الدولة الأموية والدولة العباسية ، ولكن خلفاء الإسلام في تلك العصور كانوا دائماً على أهبة الإستعداد لرد ومحاربة تلك الغارات ، انظر أمثلة من غارات الأحباش في تلك العهود . محمد بن ظهيره القرشي ، الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف . (القاهرة ، ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م) ص ٨١ ، عبد القدوس الأنصاري ، موسوعة تاريخ مدينة جدة (القاهرة ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م) ص ٥٧ .

(٣٣) اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ١٣٩، حمدي السيد . الصومال ،جـ ١ ص ٣٥٠ - ٣٥١ .

Trimingham , Islam in Ethiopia PP. 50 ff.

الخطاب قد عزل خالد بن الوليد عن القيادة لأسباب غير شخصية ، ولم يثبت أن قام بذلك لإساءته شخصياً أو إضطهاد أخواله ، إذ أن أم الخليفة «حنتمة بنت هشام بن المغيرة » ، بنت عم خالد بن الوليد ، ولم يكن عمر بن الخطاب قاطع رحم ، ولكنه كان عادلاً لا تأخذه في الله لومة لائم . والمسألة بشكلها هذا لا تؤدى إلى هجرة ود بن هشام وأفراد من أسرته نحو أفريقية ، في هذا الوقت المبكر ، وبسبب عزل خالد بن الوليد عن قيادة الجيش الإسلامي .

ولإختلاف سادة العرب حول منصب الخلافة بعد مقتل عثمان بن عفان ، إنقسم المسلمون إلى شيع وأحزاب في عهد الخليفة « علي بن أبي طالب » ، فهاجر بعض المسلمين إبان فترة الإضطرابات التي سادت اثناء خلافة علي بن أبي طالب إلى ساحل شرق أفريقية ، ويرجح أنهم كانوا من الخوارج الذين حاربهم علي وهزمهم في موقعة النهروان عام (٣٩هـ) [٣٤] .

لقد قامت دولة بني أمية والخلافات على أشدها بين المسلمين ، منهم من يناصر شيعة علي ويرى أن الخلافة لأولاده من بعده ، ومنهم من ساند معاوية بن أبي سفيان كاهل الشام ، هذا فضلاً عن حزب الخوارج الذي له رأي آخر . واتفق الشيعة والخوارج - على الرغم من تباعدهم الفكري - على تقويض أركان دولة بني أمية . وحينئذ انتشرت الإضطرابات ، التي نتج عن اخمادها هجرات متعددة إلى سواحل شرقي أفريقية [٣٥] .

---

(٣٤) وللمزيد من التفصيلات انظر حمدي السيد. الصومال، جـ ١ ، ص. ٣٤٩

(٣٥) تقي الدين المقريزي ، الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام (القاهرة ، د.ت) ص ٢٢ وما بعدها ، الحفني القنائي ، الجواهر الحسان ، ص ١٥-١٦. أحمد شلبي موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية (القاهرة ، ١٩٦٨م) جـ ٦ ، ص ٦٦٣ .

ومن أهم الهجرات العربية إلى منطقة القرن الأفريقي وسواحل الصومال ، هجرة الجلنديين في أيام خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ / ٦٨٥-٧٠٥م) - ومن المرجح أنها أول حركة استيطان إسلامية على سواحل الصومال الجنوبية ، وسبب هذه الهجرة ثورة قام بها سليمان وسعيد إبنا عباد الجلندي في عمان . وكانت عمان الواقعة في أقصى جنوب شرقي الجزيرة العربية ، ملاذاً للفارين من حكم بني أمية . لتمتعها بنوع من الحكم الذاتي ، وثار الجلنديان حينما اتبع « عبد الملك بن مروان » سياسة قبلية في الحكم، وعين على عمان رجلاً من اتباعه المخلصين ، وأبعد العمانيين عن الحكم وابان ثورتهما ارسل عبد الملك إليهما أشهر ولاة بني أمية ، وهو « الحجاج بن يوسف الثقفي » ، لإعادة عمان إلى حظيرة الدولة الأموية ، وتمكن الحجاج من هزيمة ثوار عمان فتحرك الأخوان وأنصارهما خلال أعوام(٧٥-٨٥هـ)(٦٩٤-٧٠٤م) - بعد أن ذاقا مرارة الهزيمة - نحو الصومال . واختلف مكان نزولهما ، إلا أنه كان على الساحل الجنوبي الصومالي (٣٦) .

وكان لقبيلة الأزد التي ينسب إليها الأخوان - سليمان وسعيد - مكانة رفيعة في عمان منذ فجر الإسلام ، كما أن هجرتهما إلى شرقي أفريقية ، تشير إلى معرفة عمانية سابقة لهذا الساحل ، وبنجاح هذه الفئة في تكوين وطن جديد على ساحل الصومال ، ازداد عدد المهاجرين العمانيين إلى تلك المنطقة (٣٧) .

---

(٣٦) حمدي السيد . الصومال ، جـ ١ ، ص ٣٤٩ - ٣٥٠ ، محمد أمين . تطور العلاقات العربية الأفريقية في العصور الوسطى ، ص ٤٧ .

R. Reusch. History of East Africa (London, 1995) PP. 73-77.

(٣٧) حمدي السيد ، الصومال ، جـ ١ ، ص ٣٥٠ ، محمد أمين ، تطور العلاقات العربية الأفريقية في العصور الوسطى ، ص٤٧ وما بعدها .

وفي سنة (٧٤هـ)(٦٩٣م) قام الخليفة عبد الملك بن مروان بتجهيز حملة قوية إلى منطقة القرن الأفريقي ، بعد أن استفحل خطر قراصنة الأحباش ، وبات يهدد تجارة الحجاز ، وتمكنت الحملة من احتلال أرخبيل دهلك [(٣٨)] الواقع أمام خليج مصوع . كما قام عبد الملك بإرسال قائده « موسى بن خثعم الكندي » سنة (٧٥هـ) إلى الصومال ، ضمن الجيوش التي بعثها هنا وهناك، وذلك لمحاولة مد النفوذ الأموي إلى الصومال ، ونشر الإسلام فيه ، خصوصاً وقد ترامي إلى سمعه أخبار هجرة جماعات مناوئة للأمويين ولقى الجيش الأموي ترحيباً من السكان فانقلبت عملية الجيش إلى الدعوة الإسلامية التي نشطت نشاطاً ملحوظاً دونما إراقة دماء ، ونشروا الكتاتيب ، ودخل الأفارقة في دين الله أفواجاً ، واخضع السكان لحكم الأمويين حتى انقرضت دولتهم [(٣٩)] . ويقال إن عبد الملك بن مروان لم يكتف بهذا وإنما أرسل إلى المنطقة عام ٧٧هـ (٦٩٦م) جماعة من أهل الشام ، لتأسيس مراكز عربية إسلامية في بلاد الساحل ، ونجح هؤلاء في إنشاء مراكز ومدن إسلامية كان من أهمها : براوة وبات ومالندي وممبسة وزنجبار وأشار بعض المؤرخين إلى أن عبد الملك عين على هذه البلاد حكاماً من العرب . ويقال أيضاً أن عبد الملك بعث أخاه حمزه إلى هناك لنشر الإسلام ، وفي رواية أخرى : أنه أرسل ابنه جعفر بن عبد الملك ، وحكم هذا الأخير في منطقة كيوايو في أرخبيل

---

(٣٨) تتكون مجموعة جزر دهلك من : دهل ، حرات ، كيباري ، ردكه ، وبقارنج ، نوره ، نقره . أنظر ، ياقوت الحموي . معجم البلدان (طبعه بيروت، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٥م) جـ ٢ ، ص ٤٩٢ ، الشاطر بوصيلي . معالم تاريخ السودان ، ص ٨ وما بعدها .

(٣٩) Enrico Cerulli. Storio della Somalia L'Islam in Somalia (Roma , 1957) PP. 238 ff .

لامو، وتوفى فيها [٤٠] .

كان لليمن ظروفها الخاصة التي شجعت عدداً من أبنائها إلى التوجه نحو الساحل الشرقي لأفريقية ، فقد انحاز اليمنيون نحو التشيع منذ الوهلة الأولى، وظلت بلادهم مكاناً للثائرين ، والخارجين عن الطاعة ، واستغلت بعض الطوائف الدينية والسياسية ، موقع اليمن المتطرف من الحكومة المركزية الإسلامية ، فأصبحت بذلك بؤرة ومركزاً للنشاط المعادي للحكومة المركزية ، كما وقعت في اليمن ذاتها حروب ومنازعات لا نهاية لها [٤١] . وحاولت الحكومة المركزية إرغام اليمنيين على الخضوع لها ، فهاجر جل أبنائها إلى ساحل الصومال للإستقرار فيه .

كانت هجرة الزيدية الشيعة سنة ١٢٣هـ (٧٤٠م) في عهد هشام بن عبد الملك ، من أشهر الهجرات التي حدثت في أواخر زمن الدولة الأموية . وكانت هذه الهجرة بسبب ثورة قام بها زيد بن علي حفيد الحسين بن علي بن أبي طالب ، ضد هشام بن عبد الملك ، وانقسم الشيعة بها إلى رافضه

---

(٤٠) مالندي (Malindi) موقعها الآن في كينيا ، وكذلك بات (Pate) وممبسة ، أما زنجبار فهي في تنزانيا ، وبراوة في الصومال ، أنظر السرأحمد العراقي . « أرض الزنج الإسلامية في العصور الوسطى » مجلة كلية الآداب بجامعة أم درمان الإسلامية (١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م) العدد الثاني ، ص ١٥٩ وما بعدها .

S.N. Stigand . The Land of Zing(London, 1913) PP. 29-30, R.Reusch . History of East Africa, PP. 72-73 .

(٤١) أحمد عبد الله زيراش . كشف السدول عن تاريخ الصومال وممالكهم السبعة (مقديشو ، ١٩٧١م) ص ١٢، الحسين بن يحيي بن الحسين بن القاسم . غاية الأماني في أخبار القطر اليماني . تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور (القاهرة ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م) جـ ٢ ، ص ٤ وما بعدها .

وزيديه [٤٢] . وتمكن هشام من إنزال الهزيمة بالزيدية والشيعة ، وقتل زيد بالكوفة، وحينئذ رحل بعض أنصاره إلى أماكن مختلفة ، منها الصومال ، ونزلوا في موقع مقديشو الحالي ، بل وعلى طول ساحل بنادر ونجح الزيدية في نشر الإسلام على طول ساحل بنادر ، وكونوا لهم دولة استمرت ردحاً من الزمن . ويقال إنهم أنشأوا مدينة مقديشو التي اصبحت بعدئذ أهم مركز سياسي وتجاري وديني لساحل شرق أفريقية في العصور الوسطى وحكم الزيدية في هذا الساحل مدة طويلة ، واصلحوا الأراضي القاحلة وزرعوها ، واستفادوا من مياه نهر شبيلي ، كما استطاعوا زراعة بعض النباتات التي أرفدتهم بأموال وثروات طائلة [٤٣] .

الهجرات الإسلامية في العصر العباسي

كانت موقعة الزاب سنة ١٣٢هـ (٧٥٠م) نذيراً بنهاية الدولة الأموية ، وقيام الدولة العباسية ، وتتبع العباسيون أثر الأمويين لأخذ الثأر منهم ، واحكموا فيهم السيف والسجن منذ أول وهلة . وانضم الأمويون إلى صفوف المناوئين للحكم العباسي ، فهم وإن كانوا أعداء فهم أصدقاء اليوم ، واستقر بعض الأمويين الفارين في الأندلس كعبد الرحمن الداخل « صقر قريش » . كما زادت الهجرات العربية الإسلامية إلى الصومال كثافة وتنوعاً في عصر

---

(٤٢) أسعد بن علي بن سليمان اليافعي . مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعبر من حوادث الزمان (بيروت ، ١٩٧٠م) ص ٢٥٧ . ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ٩ ، ص ٣٣ ، حمدي السيد، الصومال ، جـ ١ ، ص , ٣٥٠ .

(٤٣) حسن أحمد محمود . الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا (القاهرة، ١٩٦٣م) ص ٤٣٦ ، جامع عمر عيسى . مقديشو ماضيها وحاضرها (مقديشو، ١٩٧٩م) ص ٣٣٣ , المسيو جان . وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية ، ص ٧٢ ، ١٨٣ ، حمدي السيد . الصومال ، جـ ١ ، ص ٣٥٠ .

بني العباس ، مما أعطاها وزناً كبيراً ، بمرور الزمن . لتتمتع منطقة الصومال بقدر كبير من الهدوء والإستقرار ، إبان فترة الإضطرابات الكثيرة في احشاء الدولة الإسلامية (٤٤) .

قامت الدولة العباسية بسواعد الفرس ، وظلوا أهم عنصر لها في الجيش وعماد الدولة نحو قرن من الزمان من عهد تأسيس الدولة إلى أيام الخليفة المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ)(٨٣٣-٨٤٢م) وكان بجانب هؤلاء الجنود من الفرس جنود من العرب ، من مصر واليمن وربيعة ولكنهم كانوا أقل شأناً وحظوة، وأقل عدداً من الفرس . وكان العرب هم كل شيء في العهد الأموي ، وضعف سلطانهم في العصر العباسي (٤٥) .،وأغضب هذا الإتجاه العباسي بعض القبائل العربية ، فاتجهت إلى مناطق بعيدة ، وهذا ما يفسر حجم الهجرات الجماعية التي اشتركت فيها تسع وثلاثون قبيلة من مختلف الأمصار الإسلامية نحو الصومال ، وإن كان جلها من صنعاء ومن العراق ، ووصلت إلى مقديشو عام ١٤٩ هـ : منهم اثنتا عشرة قبيلة من القحطانيين (آل فقيه) من بلد المقري بصنعاء واثنتا عشرة قبيلة من الجدعني (الشاشيون)، وست من العقبي (الدرقية) ، وثلاث من العفيفي ، وست من الإسماعيلي ، وأشارت المصادر إلى أن القحطانيين من ذرية سليمان بن يعقوب بن قحطان بن وائل بن حجر الصحابي الوافد على النبي ص في السنة السابعة للهجرة ، وبشر النبي بقدومه قائلاً : « يأتيكم بقية أبناء الملوك » ودعا له بالبركة في أولاده، ومن أجل هذه الصبغة التاريخية ، اتفقت جميع قبائل الصومال والعرب

---

(٤٤) زاهر رياض . الإسلام في أثيوبيا في العصور الوسطى . (القاهرة ، ١٩٦٤م) ، ص ١١٥ .

(٤٥) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك (طبعة بيروت ، ١٣٨٤هـ١٩٦٥/م) جـ ٧ ، ص ١١ وما بعدها ، أحمد أمين . ظهر الإسلام (بيروت ، ١٩٦٩م) جـ ١ ، ص ٣ ، ٥٧ .

في مقديشو بأن يتولى آل الفقيه القضاء وتوثيق النكاح [٤٦] .

أثبتت وثيقة لرجل يدعى إسماعيل بن عمر بن محمد ، عثر عليها ، أشارت إلى أنه من بني قحطان ، وهاجر إلى مقديشو عام ١٤٩ هـ ، كما تشير وثيقة أخرى للسيد / عقب بن محمد بن إبراهيم القرشي ، أنه من قبيلة كنانه من مدينة مكة ، واستوطن في مقديشو فترة طويلة [٤٧]، كما نزلت على مقديشو في عام ١٥٠ هـ قبيلة مخزومية ، وينتسب إليها الشيخ عبد العزيز بن محمد بن أبي بكر المخزومي ، صاحب المنارة الطويلة في مقديشو ، والتي تعتبر من أهم معالم حضارتها الإسلامية ، وبعد هذه الهجرة المخزومية تدفق على الصومال سيل من مهاجري الحضارمة واليمن كآل الأهل ،وآل جمال الليل وآل النضير [٤٨] .

والتفسير الوحيد لهذه الهجرات الجماعية في عهد بني العباس ، ما لاقاه العرب من هزيمة تجاه أبناء الفرس ، واضطهاد خلفاء العباسيين والتنكيل بالأحزاب العربية المناوئة لحكمهم . فصار لهم ساحل قرن أفريقيا وما جاوره من السواحل ، مأوى وملجأ . وكان اليمن مركز دعاة الشيعة موضع قدم للمهاجرين ، يلقن لهم مبادىء الشيعة وأساليب الدعوة الإسماعيلية ، ثم يرسلهم إلى الصومال وبقية بلاد شرق أفريقية بعيداً عن أنظار بني

---

(٤٦) عيدروس بن الشريف العيدروس . بغية الآمال في تاريخ الصومال . (مقديشو ، ١٩٥٤م) ص ٤٢.

(٤٧) جامع عيسى . مقديشو ماضيها وحاضرها . ص ٢١. غيثان بن علي بن جريس « العرب في مقديشو ... » ص ١٣٠ وما بعدها .

(٤٨) عيدروس العيدروس . بغية الآمال في تاريخ الصومال . ص ٤٢، غيثان بن علي بن جريس . بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية ، جـ ١ ، ص ١٥ وما بعدها .

العباس[49] .

إهتم العباسيون بقرن أفريقية منذ عهد الخليفة (أبو جعفر المنصور ١٣٦ - ١٥٨ هـ) الذي أرسل وفداً عباسياً برئاسة رسوله يحي بن عمر العنزي إلى مقديشو سنة ١٤٩ هـ ، وطاف هذا الوفد مدناً أخرى في شرقي أفريقية مثل منـدا Munda ، وأوزي Ozi ، وكلفي Kalfi وبساسه Basasa وكلوه Kilwa ، حيث لقي ترحيباً من سلاطينها . وبعد عودته إلى بغداد بشر أبا جعفر المنصور ، بأن تلك البلاد تحت طاعته ، وأن السلاطين بعثوا إليه خراج بلادهم[50] ، والراجح أن هؤلاء الحكام كانوا من العرب الفارين من بني أمية أو من خلفاء العباسيين ، وربما كانوا من الأمويين السابقين ، واتصلت بهم حكومة العباسيين لمد حكمها وسيطرتها إلى تلك المنطقة بغية تكوين إمبراطورية عباسية مترامية الأطراف ، بدليل ذكر الخراج في الرواية السالفة الذكر ، وانهم قطعوا الخراج في عهد هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ ٧٨٦ - ٨٠٩م) وولي البلاد ولاة أعاجم[51] . ويقصد بالأعاجم الفرس الذين كانت لهم السيطرة على شئون الدولة العباسية في عهد هارون الرشيد والبرامكة ، مما يدل على أن المنطقة تتأثر بما يجرى في الدولة الإسلامية حينذاك من تنافس عربي فارسي ، وبتأثير السكان الأصليين والعرب ، وانقلب هؤلاء الأعاجم على المأمون في سنة ٢٠٩ هـ ، ويعزي ذلك إلى ما قام في بغداد من فتنة خلق القرآن الكريم وما صاحبها من هروب كثير من العرب

---

(٤٩) عبد المجيد عابدين . بين الحبشة والعرب (القاهرة،د.ت) ، ص٢٤٦

(٥٠) عيدروس العيدروس . بغية الآمال في تاريخ الصومال ، ص ٤٥ .
Enrico Cerulli. Storio della Somalia PP. 238-239.

(٥١) عيدروس العيدروس ، بغية الآمال في تاريخ الصومال ، ص ٤٥ .

والمسلمين ، خصوصاً العلماء والفقهاء ، إلى مناطق عديدة ، وأثروا على سكان تلك المناطق ، ومن ضمنها منطقة قرن وشرقي أفريقية ،وحينئذ بعث المأمون إلى شرقي أفريقية جيشاً قوامه خمسون ألفاً من الجنود و دفع الحكام إليه خراج بلادهم ، دون مقاومة ، وامتد زحف هذا الجيش حتى مدينة مالندي Malindi في كينيا (٥٢) .

وفدت على الصومال في سنة (٣٠١هـ / ٩١٣م) هجرة الأخوة السبعة من قبيلة الحارث ،وعدد كبير من أتباعهم ، على ثلاث سفن ، وهاجروا من الأحساء أو من مدينة مجاورة لها على الخليج العربي ، بضواحي البحرين ، وفروا من جور سلطان تلك المدينة ، وهبطوا على شواطىء الصومال ، وانتشر هؤلاء الأحسائيون الشافعيون على طول ساحل بنادر دون مقاومة من الزيدية الذين كانوا يسيطرون على هذه المنطقة ردحاً من الزمن . وفي فترة وجيزة تحول سكان هذا الساحل إلى المذهب الشافعي ، كما امتد نفوذهم السياسي إلى كثير من البلاد جنوب مقديشو ، وصارت كل من جندرشا ومركه مراكز الحضارة أحسائية (٥٣) . وارتفعت مقديشو إلى مستوى عال من القوة والنشاط الثقافي والإجتماعي ، حتى أصبحت سيدة على كل عرب الساحل ، كما احتفظت بمركزها كأقوى مدينة على الساحل إلى أن قدم مهاجرون جدد من

---

(٥٢) المرجع نفسه .

(٥٣) J.S. Kirman, Men and monuments in East African Coast (London, 1964) PP. 48-49, R. Reusch History of East Africa PP.85-87

بنادر جمع بندر ، وهي كلمة فارسية تعني الميناء ، استعملها العرب مثل بر البنادر في شرقي أفريقية، ومازالت مستعملة حتى اليوم . ومنطقة بنادر تضم المنطقة الواقعة ما بين عدل شمالاً حتى براوة جنوباً وتتكون من مرافىء : عدل، رشيخ ، مقديشو ، جندرشا ، مركه ، براوه ، انظر جورج فاضلو حوراني. العرب والملاحة ، ص ١٧٩ - ١٨٠ .

الخليج العربي ، وأنشأوا موطناً آخر لهم في مدينة كلوة ، وكان يقود هذه الجماعة علي بن حسن الشيرازي ، وهو أحد أبناء (حسن) سلطان شيراز في فارس .وهذه الهجرة الأخيرة هي هجرة فارسية تركت بلادها وابحرت إلى ساحل شرق أفريقية فراراً من جيش السلاجقة الذين دخلوا فارس والعراق وطردوا بني بويه [٥٤] . واستمر الشيرازيون الفرس يحكمون ساحل شرقي أفريقية قرابة الأربعة قرون ، حتي جاء البرتغاليون عام ١٤٩٧ م بقيادة فاسكو داجاما وقضوا على هذه الإمبراطورية التي عرفت باسم إمبراطورية الزنج الإسلامية أو سلطنة كلوة الإسلامية نسبة إلى عاصمتها كلوة [٥٥] .

ولا شك أن هذه الهجرة قد سبقتها أو لحقتها هجرات فارسية أخرى ، خصوصا بعد أن نجح الفرس في تكوين تلك الإمبراطورية الشاسعة المترامية الأطراف والممتدة من (زيلع) شمالاً إلى (سوفالا) جنوباً .

كانت هجرة الشيخ (أبادر) أهم هجرة عربية إلى سواحل الصومال الشمالية ، ودخل هذا الشيخ مدينة هرر الداخلية في عام (١٠٠٠م) ونشر الإسلام فيها ، ومنذئذ اصبحت قاعدة لنشر الدعوة الإسلامية فيها [٥٦] . وتذكر الروايات الصومالية القديمة أن عربياً عريقاً دعا إلى الدين الإسلامي والثقافة الإسلامية في تلك المنطقة [٥٧] .

(٥٤) غيثان بن علي بن جريس . « العرب في مقديشو... » ص ١٢٩ وما بعدها . شيراز إحدى مدن الفرس المشهورة . المسيوجيان . المرجع السابق ، ص ٤٨٢ .

(٥٥) سير توماس أرنولد . الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين (القاهرة ، ١٩٧٠م) ص ٣٧٨-٣٧٩، حسن ابراهيم حسن . انتشار الإسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى شرق القارة الأفريقية وغربها (القاهرة ١٩٥٧م ص ١٢) ، المسيوجيان ،وثائق تاريخية وجغرافية ، ص ٧٨، حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية في افريقية في العصور الوسطى ، ص٤٩

(٥٦) حمدي السيد ، الصومال ، جـ ٩ ، ص ٣٥٢ ، المسح الشامل،ص٦٨

(٥٧) أحمد شلبي ، موسوعة التاريخ الإسلامي ، جـ ٦ ، ص ٦٦٥ . الشاطر بوصيلي. معالم تاريخ السودان ، ص ٩ .

الهجرات العربية واثرها على التطور الحضاري

في القرنين الثالث والرابع للهجرة :

- تطور العلاقات التجارية ودورها في ازدهار المدن :

أدى تطور العلاقات التجارية والإقتصادية إلى ازدهار الإسلام في منطقة القرن الأفريقي في القرنين الثالث والرابع للهجرة (القرن التاسع والعاشر الميلاديين) ، والثابت أن هذه العلاقات التجارية بين العرب ومناطق الساحل الأفريقي ترجع إلى ما قبل الإسلام ، كما سبق القول ، ومنذ القدم أسس العرب مدينتي « زيلع » وحمر (مقديشو حالياً) . ولما ظهر الإسلام حث أتباعه على السعي في طلب الرزق ، فخرج تجار العرب العرب ، وحملوا معهم الدين الإسلامي يتاجرون مع سواحل القرن الأفريقي ، بل وتغلغلوا إلى الداخل بتجارتهم ، فاستقروا هناك ، وظل الساحل مسرحاً لنشاط تجار العرب ودعاة الدين الإسلامي ، واستوطن منهم عدد كبير في المدن الساحلية ، وكان معظم هؤلاء العرب في البداية من اليمن وعمان وحضرموت ، وجلب العرب إلى المنطقة سلعاً جديدة كمواد تجارية تلعب دوراً كبيراً برواج التجارة في أسواق الإمبراطورية الإسلامية ، كالسمسم والقطن ، وبعض أشجار الفاكهة ، وعزل النشاط التجاري الإسلامي الكبير في بلاد الصومال وارتيريا والسودان عزلاً تاماً للحبشة المسيحية عن العالم الخارجي لا سيما وأن المسلمين قد مدوا نفوذهم على ميناء « زولا » الثغر الوحيد لتجارة الحبشة على البحر الأحمر وقوبل تجار العرب بالترحاب الشديد من السكان ، فاتخذوا ذلك وسيلة لبث الدعوة الإسلامية بينهم فانجذب كثير منهم إلى الإسلام ، خصوصاً وانهم قد لمسوا من العرب التجار والدعاة صفات حميدة ، وأخلاقاً فاضلة اتصفوا

بها[٥٨] .

كانت منطقة القرن الأفريقي تنتج سلعاً جذبت انظار تجار المسلمين كالأخشاب والتوابل والبن والعاج والجلود وغيرها نقلوها إلى أسواق استهلاكها في الدولة الإسلامية التي انتشرت في ربوعها مظاهر الترف والنعيم[٥٩] . وكان لعرب عمان المسلمين فضل السبق التجاري في منطقة القرن الأفريقي ، وذلك بحكم الموقع الجغرافي حيث تطل عمان على المحيط الهندي من جهتين . لذلك حققت نجاحاً كبيراً في الملاحة ، الأمر الذي مكنهم من انتزاع السيطرة البحرية فاستطاعوا أن يمزجوا التجارة بالدعوة إلى الإسلام وانشأوا مراكز تجارية لهم على الساحل ، كما دعموا المدن السابقة كزيلع وبربرة وبندر قاسم[٦٠] .

ونظام هبوب الرياح الموسمية في المحيط الهندي من أكبر العوامل التي سهلت حركة التجارة ونشر الإسلام في الصومال حيث تمكث السفن الشراعية مدة لا بأس بها في سواحل أفريقية لانتظار تغيير الرياح اتجاهها . وهذه الفترة كان التجار ينتهزونها لنشر الإسلام بين سكان الساحل وقد يتبقي

---

(٥٨) زاهر رياض . الإسلام في أثيوبيا ، ص ٦٢، عبد المجيد عابدين . بين الحبشة والعرب ، ص ٢١٧ .

(٥٩) ابن حبيب ، المنمق ، ص ٤١٧ ، البلاذري ، أنساب الأشراف ، تحقيق محمد حميد الله (القاهرة ، د.ت) جـ ١ ، ص ١٨٨، ابن عبد ربه ، العقد الفريد . تحقيق أحمد أمين وآخرين (بيروت، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م) جـ ١ ، ص ٢٧٤، محمد حميد الله ، الوثائق ، ص ١٠٦، المسح الشامل ،ص ٩٣ .

M. Kister. Some Reports ..PP. 61 ff. P. Crone. Meccan, PP. 124 - 129

(٦٠) ترمنجهام ، الإسلام في شرق أفريقيا . ترجمة محمد عاطف النداوي (القاهرة ، ١٩٧٣م) ص ٢٦ ، محمد المعتصم سيد . دول إسلامية في شرق أفريقيا (هرر والصومال) . (القاهرة ، ١٩٦٤م) ص ٢٧ .

بعضهم في مراكز التجارة لتجهيز سلع الموسم القادم ، وعرض الإسلام على الأهالي كما ساعدهم على هذه المهمة أولئك الذين استقروا بصفة دائمة في هذه المستوطنات الإسلامية الجديدة وبمرور الزمن تحكم تجار اليمن وعمان ومسقط في تجارة الداخل وقوافلها بعد تجارة الساحل . واستقر الإسلام في كثير من المناطق الساحلية منها والداخلية ، منذ القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ، وقامت - تبعاً لذلك - ممالك إسلامية في الداخل مثل مملكة أوفات الإسلامية وغيرها من ممالك الطراز الإسلامي ، وقد ظهرت مدن ساحل بحر القلزم (البحر الأحمر) في كتب الرحالة والجغرافيين منذ القرن الرابع الهجري وقد وصف ابن حوقل (ت٩٦٨) مدن (عيذاب) و (سواكن) و (باضع) في السودان [٦١] ، ومن الأخيرة يتجه البحر إلى دهلك التي بينها وبين زيلع ستة مجار أي أيام ، وأن جزيرة زيلع بين غلافقه وعدن ، وجزيرة نجه (من الممكن أن يقصد ميناء بلحار) وبربرة محاذية لأعمال عدن ومن هذه الجزر أكثر جلود الدباغ بعدن واليمن من البقرى والملمع والأدم الثقيل ، ثم يمتد البحر الأحمر على بحر الحبشة ... حتى ينتهي إلى بلدان الزنج ، وهي من أوسع تلك الممالك فيمضى السيف محاذياً بجميع بلدان الإسلام [٦٢] .

كذلك أشار الأصطخري إلى اهمية مدن هذا الساحل ، حيث يقول : « وما

---

(٦١) ابن حوقل ، كتاب صورة الأرض . تحقيق م. - دي غوي . (ليدن ، ١٩٣٩م) ، ص ٤٧ وما بعدها . أنظر أيضاً عماد الدين أبو الفداء . كتاب تقويم البلدان (باريس ، ١٨٤٠م) ص ١٥٢-١٦٣، محمد بن محمد الإدريسي . كتاب نزهة المشتاق في إختراق الآفاق (بيروت ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م) جـ ١ . ص ١٠٣ وما بعدها .

(٦٢) ويقصد بكلمة (مجار) أي مسيرة يوم واحد في السفر البحري ، وهي ٢٤ ساعة . أما المسافة التي تقطعها السفينة خلال أثنتي عشرة ساعة فهي يوم . أنظر المسيو جيان . وثائق تاريخية وجغرافية ، ص ١٠٤-١٠٥ .

كان من النمور والجلود الملمعة وأكثر جلود اليمن - التي تدبغ للنعال تقع منها إلى عدوة اليمن ، وهي أهل سلم ليسوا بدار حرب ، ولهم على الشط موضع يقال له زيلع ، فرضة للعبور إلى الحجاز واليمن [٦٣] » .

أما المؤرخ والجغرافي المعروف بالمسعودي (ت٣٤٦هـ ٩٥٦م) فقد وصفها بصورة أكثر وضوحاً من السابقين لأنه جاب المنطقة ، ورأى متاجرها وسكانها رأى العين ، وذكر منتجاتها ، ومن يجوب خلال ديارهم من عرب عمان وسيراف في كل من البحر الأحمر والمحيط الهندي ، وأن سكان خليج البربري سودانيون وأن ديارهم متصلة إلى بلاد الدهلك والزيلع وباضع وهؤلاء القوم أصحاب جلود النمور وأحسنها للسروج ، كما تصدر المنطقة جلود السلحفاة التي تصنع منها الأمشاط وكل مظاهر الترف ، وكذلك جلود الزرافة واللبان [٦٤] .

وأشار المسعودي إلى أن الرحلة إلى بلاد شرقي أفريقية لا تستغرق أكثرمن ثلاثة أيام ، فضلاً عن استقرار كثير من العرب المسلمين في منطقة القرن الأفريقي ، وفي مدن زيلع وبربره و باضع ، وهذه مدن فيها خلق من المسلمين إلا أنهم في ذمة الحبشة [٦٥] .

طاف المسعودي البحر من عمان شرقي أفريقية ، ونقل أحاديث الملاحين في تلك الأرجاء ، والراجح أنه قد سافر أكثر من مرة مع نواخذه سيرافيين أرباب المراكب مثل محمد بن الريدوم السيرافي ، وجوهر بن أحمد المعروف

---

(٦٣) إبراهيم الأصطخري ، المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال (القاهرة ، ١٩٦١م) ص ٣٢ .

(٦٤) المسعودي ، مروج الذهب ، جـ ٢ ، ص ١٠٧، جـ١ ، ص ٤، ٢٨ .

(٦٥) المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ١٨ - ١٩ .

بأبن سيرة . وأشار المسعودي إلى الثروة البحرية التي تتمتع بها تلك المنطقة حيث يكثر العنبر في بلاد الزنج والشحر ، إلا أن أجوده من جزائر الزنج وساحله، ويصطاد سكان بلاد الزنج سمك الأوال ليستخرجوا منه العنبر (٦٦) .ومنذ القرن الرابع الهجري ازدهرت تجارة الرقيق في محيط الدولة الإسلامية ، وألح الخلفاء والأمراء والأغنياء ، في طلب ما ينقصهم من أدوات الترف والنعم وملذات الحياة ، فنشطت بهم حركة تجارة الرقيق لسد مطالبهم ، واستخدم الرقيق بصفة ازدواجية ، كجنود لقمع الثورات التي تقوم لمناهضة هذا الترف، وكخدم في بيوت الخلفاء والأمراء والأغنياء . وجذبت هذه التجارة اللاإنسانية عدداً كبيراً من المسلمين وفدوا على مختلف الأقاليم ، ومنها منطقة القرن الأفريقي ، كمغامرين ، ووسطاء وتجار ، فعجت بهم المدن الساحلية ، وهم يشتغلون بتجارة الرقيق وغيرها (٦٧) .

ويعزى توغل الإسلام وامتداده ، نحو الداخل بصورة مكثفة في منطقة القرن الأفريقي ، حينذاك إلى النشاط التجاري الهائل وما صاحبه من دعوة دينية واسعة النطاق في ذلك القرن وما يليه ،وتضافر جهود التجار والدعاة المتطوعين، وأخذ الإسلام يشق طريقه إلى داخل أراضي منطقة القرن الأفريقي نتيجة للتوسع التجاري الذي كان يسيطر عليه المسلمون من خلال الشبكة الواسعة من طرق القوافل التي كانت تربط بين الأجزاء الداخلية والموانىء البحرية الواقعة على الشاطئ الغربي للبحر الأحمر ، والمحيط الهندي ، وأحرز الإسلام تقدماً كبيراً ونجاحاً منقطع النظير حتى تحولت منطقة جوباJuba أقصى منطقة جنوبية داخلية - إلى الإسلام حوالي (١١٠٨هـ).

---

(٦٦) المصدر نفسه ، جـ ١ ، ص ١٥٠ - ١٥١ .

(٦٧) حسن أحمد محمود . الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، ص ٤٢٩

بل ومنها امتد الإسلام ، وتطرق حتى منطقة البحيرات الكبرى (٦٨) . وأظهر بعض الكتاب إعجابهم بسرعة تأثر الصوماليين بالدعوة الإسلامية ، فمن الواضح أن سرعة انتشار الإسلام في الصومال ، ترجع إلى أنه بلغة قريبة إليهم ، فقد عرفوا اللسان العربي وشعبه في المعاملات التجارية منذ فترة طويلة ، فضلاً عن تلك الأعمال العظيمة التي قام بها دعاة وقفوا حياتهم على الدعوة إلى الإسلام ، واتخذوا من هدى الرسول ص مثلاً أعلى وقدوة صالحة (٦٩) .

كان اختلاف طبقات المهاجرين ، وإختلاف اتجاهاتهم باختلاف الأغراض ، من أهم أسباب انتشار الإسلام في الداخل ، فهناك علماء وفقهاء لا هم لهم إلا نشر الدين ، فاستقر التجار في مدن الساحل حيث يسهل الإتصال بين الساحل والداخل ، وتوجه الزراع إلى مناطق تتوفر فيها خصوبة الأرض وغزارة الأمطار، بينما توافد الرعاة على المناطق الصحراوية وشبهها . وكان معظم المهاجرين عزاباً ، أو أنهم لم يأخذوا معهم زوجاتهم ، فتصاهروا مع السكان ، واستقروا بصورة دائمة ، وتعلموا اللغة المحلية ، ورسخوا في نفوس السكان حب الإسلام وعقيدته (٧٠) .

---

(٦٨) طرخان ، « الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة ... » ص ٣١، الأمين عبد الكريم « الصراع بين القوى الإسلامية والمسيحية في أثيوبيا » ص ٤٨ .
Trimingham , Islam in Ethiopia PP. 52-53; ULLendroff, The Ethiopians , PP. 60 - 61 .

(٦٩) سير توماس ارنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ص ٣٨٠ ، حمدي السيد. الصومال ، جـ ١ ، ص ٤٠٢ .

(٧٠) أحمد شلبي ، موسوعة التاريخ الإسلامي ، جـ ٦ ، ص ١٨٣ .
R.Reusch . History of East Africa . PP. 71-72.

نمو المدن الإسلامية وإزدهارها في منطقة القرن الافريقي :

إن ازدهار الإسلام وانتشاره في منطقة القرن الأفريقي ، في القرن العاشر الميلادي وما تلاه ، نتيجة لحركة اتصالات تجارية مستمرة وغيرها ، أدى إلى قيام مدن إسلامية ، ساهمت بدورها في نشر الثقافة والفكر الإسلامي ، ولم يذكر أي اصطدام بين العرب والفرس ، بل نشروا الإسلام بصورة جماعية ، كما تعاونت الحركات والعصبيات المذهبية والطائفية من سنة وشيعة وخوارج،وحنابله وشافعية ،وأصبحت المنطقة بعيدة عن تنافر وتنافس العصبيات . وأدى هذا التفاعل إلى اختلاط عنصري بين المهاجرين والسكان الأصليين حيث تزوج المهاجرون بنات السكان الوطنيين ، فاختلطوا إختلاطاً صعب على المؤرخين أن يحققوا أصول الجيل الجديد الذي يحمل سمات الجانبين ، وتشملهم روح الدين والتقاليد والعادات والأهداف [(٧١)] . كما تحولت المدن الصغيرة إلى مدن زاهرة ، واتسعت شوارعها ، وأصبحت مساكنها مباني حجرية ، ولأبوابها ونوافذها الخشبية الطابع والطراز العربي والفارسي [(٧٢)] .

ومن أشهر هذه المدن التي امتدت على طول ساحل الصومال في البحر الأحمر والمحيط الهندي : مقديشو ومركة وبراوه وزيلع وبربرة وهرر . وقد ازدهرت هذه المدن نظراً لمركزها الجغرافي الممتاز وكثرة خيراتها ونشاط

---

(٧١) بازل دافدسون ، أفريقيا تحت أضواء جديدة . ترجمة جمال حسن أحمد. (بيروت ، ١٩٦١م) ص ٢٧٨

I.M.Lewis . The Modern History of Somolia & from Nation to State (London, 1965) PP. 20-21.

(٧٢) حمدي السيد . الصومال . جـ ١ ، ص ٣٥٤ .

أهلهـا الرائع ، وتقع على طول الطريق البحـري التقليـدي بين زنجبـار وبلاد العرب، وتتـابعت عليـها الهجرات الإسلاميـة ، لذلك ظلت من أهم المراكز الإسلامية على ساحل شرقي أفريقية ، وقامت هذه المدن بدور كبير في نشر العقيدة الإسلامية في الساحل والداخل ، فكانت هذه المدن المحور الأساسي لمستوطني شمال الصومال المسلمين ، وحجر وثبة لتوسع الإسلام نحو الداخل في غرب الصومال وأثيوبيا ، وازدهرت لقرب الساحل من الداخل ، ولنشاط سكانها التجاري الذين يتجرون في البن والفاكهة والخشب واللبان والبخور وشحنها على السفن حيث يشتد الطلب عليها واستبدالها بما يحتاج إليه سكانها ، وتحولت إلى هذه المدن كثير من الأنشطة ، وأشار ابن سعيد وياقوت الحموي والدمشقي إلى أهمية هذه المدن التجارية ، وكثرة تنقل سكانها إلى البلاد العربية لغرض التجارة وآداء فريضة الحج [(٧٣)] . وهكذا اكتمل لهذه المدن الساحلية والداخلية المذكورة وغيرها ، مقوماتها الإسلامية ولكل منها مسجدها أومساجدها الخاصة بها كمنارات للعبادة والثقافة الإسلامية . ومن أجل هذا أصبح تاريخ مدن الصومال الساحلية أكثر وضوحاً من تاريخ البلاد الداخلية [(٧٤)] . وكان أبرز البلاد الداخلية ، بل تعتبر أول الممالك الداخلية التي قامت في منطقة القرن الداخلية مملكة إسلامية عرفت باسم « مملكة شوا الإسلامية » وكان ذلك في عام ٢٨٣هـ / ٨٩٦م ،

---

(٧٣) ياقوت الحموي ، معجم البلدان (طبعة بيروت ، ١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م) جـ ٥ ، ص ١٧٣، علي بن موسى بن سعيد المغربي ، كتاب الجغرافيا . تحقيق إسماعيل العربي (بيروت ، ١٩٧٠م) ص ٨٢، شمس الدين الأنصاري الدمشقي . نخبة الدهر في عجائب البر والبحر (انظر بطرسبرج، ١٨٦٥م)ص ٩٧ وما بعدها ، أبو الفداء ، كتاب تقويم البلدان ، ص ١٥١-١٦٢ .

(٧٤) عبد الحميد عابدين . بين الحبشة والعرب . ص ٢٢٦ .
Lewis , The Modern History of Somalia. PP. 18-19.

وحكمت في منطقة الداخل لأثيوبيا والصومال لمدة أربعة قرون ، واضطلعت هذه المملكة بمسئولية نشر الإسلام في الحبشة والصومال ، ولكن من سوء الحظ أن معظم نشاطها وآثارها الإسلامية قد فقدت ، ما عدا وثيقة مختصرة، لا تعطي غير فترة احتضارها الأخير في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي ، وفرقتها الخلافات الداخلية والصراع الخارجي حتى سقطت في عام ١٢٨٥م على أيدي « مملكة أوفات الإسلامية » التي توسعت نحو الداخل والساحل لنشر نفوذ الإسلام في هذه المنطقة (٧٥) . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى تغلغل النفوذ الإسلامي وسيطرته السياسية حتى منطقة شوا والسيدامو . وأدت مملكة أوفات الإسلامية التي تأسست في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ، خدمات جليلة للإسلام والمسلمين، واضطلعت بالدور الأكبر في نشر الفكر والثقافة الإسلامية

---

(٧٥) حسن أحمد محمود . الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، ص ٤٣٢-٤٣٣، محمد الأمين . تطور العلاقات العربية الأفريقية في العصور الوسطى ، ص ٣٩ .

مملكة شوا الإسلامية : يسجل المؤرخون أن أول من هاجر إلى قرن أفريقيا من المسلمين العرب ،هو ود بن هشام المخزومي وجماعة من أسرته ، واستقروا في مكان ما من الساحل ، ثم نزحوا إلى الداخل في منطقة شوا ، ونشروا فيها الإسلام ، فكان ذلك سبباً أدى إلى قيام مملكة شوا الإسلامية في نهاية القرن الثالث الهجري (نهاية القرن التاسع الميلادي)(٢٨٣هـ / ٨٩٦م) تكونت من ذراري هذه القبيلة المخزومية ، وهي القبيلة التي ينسب إليها خالد بن الوليد . وقد امتزجت هذه القبيلة العربية بالوطنيين وصاهروهم ، وأخذ الإسلام ينتشر تدريجياً ، فأعتنقته عناصر الساهو والعفر في شرقي الحبشة ، كما أنه إمتد إلى مناطق السيدامو وشوا الشرقية في جنوبي الحبشة ، ولعل الفترة البارزة في التوسع الإسلامي في مملكة شوا تقع بين القرنين الرابع والسادس الهجريين (العاشر والثاني عشر الميلاديين) وهي فترة التوسع المنظم للإسلام ديناً ودولة من ناحية نشر العقيدة الإسلامية ... ومملكة شوا الإسلامية تزعمت حركة الجهاد الإسلامي مع مملكة أوفات الإسلامية ضد الحبشة المسيحية .

Trimingham , Islam in Ethiopia, PP. 55 ff.

والحفاظ على التراث الكبير الذي تركه المسلمون في منطقة القرن الأفريقي على مر الأجيال .

تطور الحياة الإجتماعية :

يتضح من التركيب الإجتماعي للمدن الإسلامية والممالك التي سادت في شرقي أفريقية خلال فترة العصور الوسطى ، أن تعايشت فيها جماعات مختلفة الأعراف ، من عرب وفرس وهنود وأفارقة وغيرهم ، ومنذ بزوغ فجر الإسلام ، وحركة نشر العقيدة الإسلامية ، يعيش هذا الخليط السكاني في تلك المدن الساحلية وفي الداخل ، حتى ظهرت في أوساطهم لهجات مختلفة : زيلعية من كلمات عربية ، وصومالية وعفرية وهندية وربما فارسية ، ثم اللغة السواحيلية. وكانت الأسر الحاكمة في تلك الممالك والمدن عربية الأصل وبجانبها التجار والزراع والجنود من العرب المهاجرين . ولم يكن للفوارق اللغوية أثر في المجتمع . وامتزجت جميع تلك العناصر امتزاجاً يكاد يكون تاماً ، فإنتفى ما يعرف بالنقاوة الجنسية التي قلما توجد في مجتمعات بدائية معزولة عن العالم. واختلطت الدماء العربية بالأفريقية بحيث لا يمكن التمييز بينها من حيث السمات ، وهذا ما يقوله العمري : « وألوان أهلها إلى الصفا ، وليست شعورهم في غاية التفلفل كأهالي مالي وما معها وما يليها من جنوب المغرب[(٧٦)] » .

أما زي سكان بلاد القرن الأفريقي وسواحله ، فقد جرت العادة ، أن يعصب الملك رأسه بعصائب من حرير تدور برأسه مع بقاء وسط الرأس مكشوفاً .

---

(٧٦) شهاب الدين بن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (جزءان) الأول تحقيق أحمد زكي باشا (القاهرة، ١٩٢٤م) ، الثاني (مخطوط رقم ٤٤١ / ٦٧٣٥) جامعة الأزهر ، ورقة ١٨٣، أحمد شلبي . موسوعة التاريخ الإسلامي ، جـ ٦ ، ص ٧١٠ .

وأما الأمراء والجنود فلهم عصائب من قطن ، يعتصبونها على هذا الوضع، ويلبس الفقهاء العمائم ، والعوام الكوافي البيضاء ، وقل من يلبس منهم قميصاً أو ثوباً مخيطاً ،وإنما يلبسون ثوبين ،وتلبس طائفة أرباب السراويل ، ومن الفقهاء وأرباب السيوف والنعم من يلبس القمصان ، ولكن الجمهور الغالب يلبس الأزارين أحدهما على كتفه متوشحاً به والآخر في وسطه[(٧٧)] ، وقد وصف ابن بطوطه زي أهل مقديشو في قوله : « وكسوتهم فوطه خز يشدها الإنسان في وسطه عوضاً عن السراويل فإنهم لا يعرفونها »[(٧٨)] .ولكن العمة والكوافي خاصة بالمسلمين ، حيث يروى عرب فقيه « أن قبيلة مسيحية في طريقها إلى معسكر الأحباش مالت خطأ إلى معسكر المسلمين ، فعند اقترابها إليهم عرفت أنهم مسلمون » لأنهم رأوا زيهم غير زي النصارى[(٧٩)] .

الحياة الدينية والثقافية :

لقد ساهمت المدن والممالك الإسلامية في ساحل شرق أفريقية إسهاماً إيجابياً في نقل الحضارة والفكر الإسلامي إلى تلك المنطقة ، كما ساعدت على نشر التراث الإسلامي ، فضلاً عن الدور الذي لعبته في تاريخ المنطقة سياسياً وإجتماعياً وإقتصادياً ، فأستمر دفع الحضارة الإسلامية في تلك المنطقة في الإزدهار والإنتشار حتى بلغ أقصى مداه في أيام إزدهار المدن الإسلامية مثل : ممالك شوا وأوفات الإسلامية ، وشجعت هذه الدول التعليم

---

(٧٧) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، جـ ٢ ورقة ١٨٣-١٨٤ .

(٧٨) محمد بن ابراهيم بن بطوطة . تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (بيروت ، ١٩٦٠م) ص ٢٥٥ ، ابن فضل الله ، مسالك الأبصار ، جـ ٢ ، ورقة ١٨٩ .

(٧٩) شهاب الدين أحمد بن عبد القادر عرب فقيه ، تحفة الزمان ، ص ٣٢٥

الذي هو جزء لا يتجزأ من الدين . كما أن أهلها يحافظون على دينهم ، وعندهم المساجد والجوامع التي تقام فيها الجمع والجماعات . وقد ظهرت المدارس القرآنية بظهور الإسلام ويبدأ نظام التعليم من مرحلة الكتاتيب ثم مرحلة العلوم العقلية والنقلية . واهتم السلاطين والفقهاء والعلماء بأن يحل الدين الإسلامي وثقافته محل الوثنية والمسيحية ، ونجحوا في ذلك نجاحاً عظيماً ، ولم يكن إهتمامهم منصباً على تعريف السكان لغوياً ،وإن تواكبت اللغة العربية وثقافتها بحركة المد الإسلامي وانتشاره في المنطقة ، واصبحت لغة التسجيل في دواوين الحكومة ، والمكاتبات الرسمية ، وفي القضاء حتى تركت بصماتها القوية في اللغات المحلية ، كما كان السكان يجيدون اللغة العربية ،وهذا ما يقوله العمري : وكلام أهلها « يقصد أوفات» باللغة الحبشية ، ويتكلمون أيضا اللغة العربية » (٨٠) .

وإزدهرت الحركة العلمية في مدن هرر وزيلع وأوفات وأصبحت هذه المراكز مدناً جامعية مشهورة ، وتنقل طلاب العلم بين هذه المدن التي اشتهرت باتقان علمائها علوماً معينة ، حيث إشتهرت هرر بدراسة علوم اللغة العربية والتفسير والحديث - واشتهرت زيلع بفقه الشافعية . وأعطى المجتمع الإسلامي العلم والعلماء منزلة عالية ، وتمنى كل طالب أن يكون عالماً من علماء الدين ، واندفعوا إلى مجلس الفقهاء والعلماء للورود من مناهلهم العلمية ، وبذل العلماء مجهودات هائلة لأداء رسالتهم العلمية ، وساعد على ذلك قرب المنطقة من موطن الحضارة الإسلامية في مكة المكرمة والمدينة المنورة والقاهرة ودمشق (٨١) . ونزحت إليها جميع الطرق والمذاهب المعروفة -

(٨٠) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، جـ ٢ ، ورقة ١٨٣-١٨٤، أحمد القلقشندي . صبح الأعشى في صناعة الإنشا (القاهرة، ١٩٠٦م) جـ ٥ ، ص ٣٢٤، عبد القادر شيخ عبد الله. تاريخ التعليم في الصومال (مقديشو، ١٩٧٨م) ، ص ١٣-١٤ .

(٨١) عبد القادرشيخ عبد الله . تاريخ التعليم في الصومال ، ص ٤٠، حسن أحمد محمود . الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، ص ٤٨٤، ٤٨٦ ، تقي الدين أحمد المقريزي . الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ، ص ٧، أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ص ٣٨٧، حمدي السيد . الصومال . جـ١ ، ص ٣٥٢ ، عرب فقيه ، تحفة الزمان ، ص ١٣ .

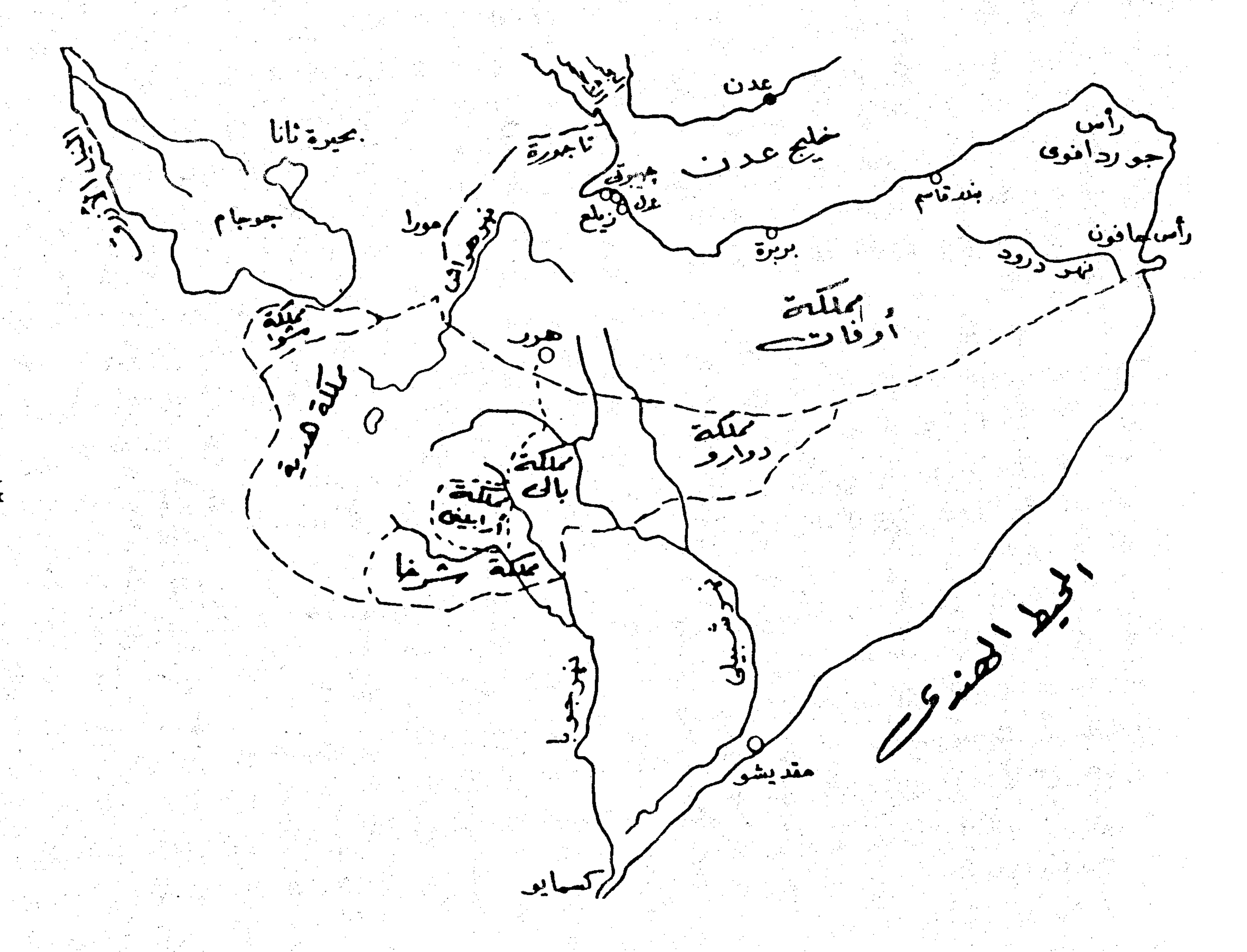
آنذاك - في العالم الإسلامي ، كما رحل كثير من أبنائها إلى تلك البلاد فتنوعت الحياة الثقافية فيها .

وأيا ما كان الأمر ، فقد ازدهرت الحركة العلمية وتعدد العلماء والفقهاء الذين يقومون بأمور الدولة ، وبتدريس الدين واللغة العربية التي تدون بها الدواوين على الطريقة الإسلامية . كما أن لهذه البلاد قضاة ومحاكم شرعية ، وأئمة للمساجد ، وكتبة ، مما يستدعي وجود طائفة متمكنة من الثقافة الإسلامية ، كما ساعد ازدهار مملكة أوفات والمدن الإسلامية الساحلية ،وعظمة حكامها وتفانيهم في خدمة الإسلام والثقافة الإسلامية ، على استمرار هجرة علماء المسلمين إليها من الأقطار المجاورة . وكانت اليمن من أهم الدول الإسلامية في شرق البحر الأحمر التي ارتبطت بها مدن الساحل بعلاقات إقتصادية وثقافية ، لأن معظم المستوطنين العرب فيها كانوا من أصل يمني (٨٢) . كما كان لتلك البلاد صلات ثقافية مع المشرق العربي ، وفي مراكزه الثقافية كالأزهر والجامع الأموي بدمشق والحرمين الشريفين (٨٣) . وتنقل طلاب العلم على طول البلاد الإسلامية المختلفة و عرضها ، بحرية وأمان ، وظهر في هذا الجو العلمي الرائع ، علماء زيلعيون صاروا جهابذة العلم ، وحازوا شهرة في محيط الدولة الإسلامية ، حيث استقروا بصفة مستديمة في مصر والشام واليمن والحجاز والعراق .

---

(٨٢) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار، جـ ٢ ، ورقة ١٨٣-١٨٤، المقريزي ، الإلمام ص٧، محي الدين بن عبد الظاهر . تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور . تحقيق مراد كامل (القاهرة ، ١٩٦١م) ص ٣٦، المقريزي ، الخطط المقريزية ،المسماة بالمواعظ والإعتبار (بيروت، ١٩٥٩م) جـ ٢ ، ص ١٧٢ .

(٨٣) إبن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، جـ ٢ ، ورقة ١٨٣-١٨٤، المقريزي ، الإلمام ، ص ٧-٨، يوسف أحمد . الإسلام في الحبشة (القاهرة ، ١٩٣٥م) ص ٢٦، عبد القادر شيخ عبد القادر . تاريخ التعليم في الصومال ، ص ١٦-١٨ .


عدن
خليج عدن
رأس جوردافوى
بندقاسم
رأس حافون
نهر درود
بربرة
زيلع
تاجورة
هورا
بحيرة تانا
جوجام
مملكة أوفات
هرر
مملكة دوارو
مملكة بالى
مملكة شرخا
مملكة هدية
المحيط الهندى
مقديشو
كسمايو
نهر جوبا

وعلى ذلك يمكن القول ، إن منطقة القرن الأفريقي ، ساحله ، وداخله ، تعتبر في الواقع ، أحد الأبواب الرئيسية التي وصلت القارة الأفريقية بالينبوع الأول للعروبة ومهد الحضارة الإسلامية وأهلها ، منذ فجر الإسلام ، بل ونظراً لأن معظم حكام الدول الإسلامية في بلاد أفريقية الشرقية من أصل عربي ، فقد ارتبطوا بعلاقات واسعة مع عدد من الدول الإسلامية في المشرق العربي خاصة، لنيل مساعدتهم المعنوية والمادية لمواصلة الجهاد ونشر العقيدة الإسلامية في المنطقة ، ومن أهم هذه المناطق والدول : اليمن والحجاز ومصر- فساعد ذلك على حركة انتشار الإسلام والثقافة الإسلامية ، وإزدهار الحركة العلمية ، وأسهم ذلك بدور كبير في تطور نظم الحكم ، والتأثير الكبير على الثقافات المحلية فأضاف الإسلام ، وحركة انتشاره ، الملامح المؤثرة والمناخ الفكري الذي يعايش ويتلاءم مع البيئة .